الطبعة الأولى 1442 هـ - 2021 م
(ISBN) : 978-9947-79-000- 0
الإيداع القانوني: 2021/03

اسم العمـــــل: المملكة السوداء
اسم المؤلـــف(ة): أسامة بن لحمر
تصميم الغلاف: زكريـــــاء رقاب
إخـــــــراج: أحمد منصـــوري
تدقيق لغـــوي: إكرام مباركـــــي
المدير العـــام / سميرة منصوري

الناشر/ دار المثقف للنشر الجزائر
صفحة الدار على موقع فيسبـــوك:
/https://www.facebook.com/elmothakaf
الموقع الإلكترونـــي: www.elmmothakef.com
هاتـف / فاكس 79 47 80 033 / 19 04 68 0770
واتساب/86 73 49 0675
مقر الدار: Rue Ben flis- impasse kalenge- batna

المثقف للنشر والتوزيع

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني والمرئي والمسموع
محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ
أو التعديل إلا بإذن من الناشر.
©

BROUILLON

أسامة بن لحمر

رواية

المملكة السوداء

«نوميديا المفقودة»

إهـــــــــداء

BROUILLON

إهداء إلى الدكتورة حنان محمود لاشين وكلّ أعضاء مجموعة مملكة البلاغة، وشكرا من القلب لكلّ القرّاء الذين شجّعوني على الكتابة.

***

أسكن في مدينة قسنطينة وأنا شخص مولَع بالحضارات القديمة والاكتشافات والآثار وغيرها من الأشياء، كذلك أعشق الطبيعة والتخييم بين أحضان الغابة، لديّ صديق يدعى رمزي، يحمل شغفي في الحياة، لكنّه قليل الذكاء، تعمّدت أن أقولها لكي أتجنّب كلمة غبيّ، هل تعلمون لماذا هو غبيّ؟ لأنّه دائما ما يقع في ورطة ويُوقعني معه في وسطها، لم يكن لنا نصيب في الدراسة ثمّ أنّنا أنهينا الدراسة في السنة الثانية ثانوي لكن كلّ واحد فينا اضطر للخروج إلى الحياة العمليّة، بالنسبة لي كنت أعمل في أيّ مكان، المهم أنّني أكسب قوتي ومصروفي اليوميّ، رمزي كذلك أشتغل في العديد من الأماكن، كنّا نقضي عطلة نهاية الأسبوع مخيِّمِين في الغابة، وننهي يومنا طريحي الفراش، لنبدأ أسبوعا جديدا من العمل الشاق، كان أبي يلقّبني بالفنيان، أمّي الحبيبة توقظني كلّ يوم عشرين مرة لأنّني لا أحب أن أفارق الفراش صباحا، لم أذكر يوما أنّني وصلت إلى عملي مبكرا، كنت دائما ما أستقبل المكالمات من الأشخاص الذين أعمل معهم "أنت مطرود" لأبدأ الرحلة في البحث عن عمل آخر...

الشيء الوحيد الذي كنت أجيده هو الكتابة والبرمجة التي تعلّمتها عن طريق اليوتيوب، لكن للأسف لم أنجح فيها لأنّني سئمت من العمل في المواقع الإلكترونيّة، كان المدخول محدودا وهذا الأمر لا يساعدني.

في يوم من الأيام اتصل بي رمزي وقال لي أنّ هناك نادياً سيبرمج رحلة إلى إحدى كهوف قسنطينة، راقني ذلك كثيرا وعلى الفور طلبت منه أن يسجّل اسمي في قائمة المشاركين في الرحلة...

@EL-MOUTHARAF

في يوم الرحلة اتّصل بي رمزي صباحا، هيّأنا أنفسنا، وانطلقنا نحو المكان الذي سنلتقي فيه لكي تبدأ رحلتنا، صعدنا إلى الحافلة، كان عدد المشاركين حوالي ثلاثين شخصا، شبابا وشابّات، ومن بينهم قادة الرحلة الذين سيقودوننا نحو هذه الكهوف، لأنّهم معتادون عليها ويعرفون كلّ الكهوف تقريبا في قسنطينة... انطلقت الحافلة متوجهة نحو وسط المدينة.

وصلنا في فترة قصيرة، نزلنا كلّنا وحملنا حقائبنا، وانطلقنا نتمشى، نقطة البداية كانت النزول في منحدر حجريّ ثمّ إلى طريق مستويّة وضيّقة، أخذنا نتمشى واحدا تلوى الآخر، كنت أنا ورمزي نتمشى ونتبادل الأحاديث في مواضيع مختلفة، ونمازح بعضنا، كانت رقبة رمزي تعجبني، كنت في كلّ مرة أصفعه، وهو يستشيط غضبا، قطعنا طريقنا على نفق ضيّق كان يقطع جبلا فيه سكّة حديدية يمرّ عليها القطار، مازحت رمزي قائلا:

إيماجيني ويخرج معانا قطار يرجعك عصيدة، ماعندك وين تهرب حتى من أنت عندك الكرش يا خويا أنا رقيق نتخبى تحتو عادي.

قال: أيا بركا ما توسوس فيا.

ثمّ زاد سرعته في المشي، مازحته قائلا:

- أبدا تجري، علابالي خفت.

قطعنا ذلك النفق، ثمّ أمرنا قائد الرحلة بتسلّق جبل، كانت نهايته تبدو قريبة لكنّ تعب التسلّق جعلها تبدو بعيدة.

BROUILLON

ما إن وصلنا إلى نهاية الجبل حتى وقفنا عند مدخل غار كبير ومظلم للغاية، طلب منّا قائد الرحلة إشعال المصابيح أو استخدام الهواتف، ثمّ دلفنا إلى الداخل وبدأنا نتمشى وقائد الرحلة يشرح لنا ويُرينا صخورا متشكّلة بأشكال الحيوانات، وبعض الكتابات القديمة التي كانت منقوشة في جدران الغار، كنت أنا ورمزي في عالم آخر، لم نكن نستمع لشروحاته، كنّا مهتمين بتفاصيل الكهف، ثمّ من دون أن نشعر، بدأنا نتمشى ونشاهد كلّ صغيرة وكبيرة، كان الكهف باردا بالرغم من أنّنا في فصل الربيع حيث يكون الجوّ دافئا، بدأنا نبتعد عن الفريق الذي جئنا معه، كانت أصواتهم تنخفض كلّما ابتعدنا، غُصنا في أعماق ذلك الكهف ثمّ قلت لرمزي:

- وين رانا؟ يا جدك كيفاش وصلنا هنا

قال: ما علابالیش، تُهت.

قلت: هيّا نرجعو.

ما إن أدرت رأسي حتى نسيت طريق العودة، فالكهف كان كلّه ممرات، أصابتني الدهشة والخوف في تلك اللحظة وقلت لرمزي:

- ماراك شافي على أي إشارة هنا؟

قال: ماعلابالیش.

بدأنا نتمشى ونحاول تذكّر طريق العودة لكن دون جدوى، جذب انتباهي غار صغير كان يظهر أسفل جدار الكهف، في لحظة نزلت إليه وجلت بنظري داخله، كان يبدو بعيدا وضيّقا لكنّ نهايته توحي بأنّ هناك غرفة واسعة، نظرت إلى رمزي وقلت:

@EL-MOUTHAKAF

- ندخلو؟

قال: وين تدخل خلينا يرحم باباك.

قلت: تبّعني برك ماتخافش.

دخلنا نزحف داخل ذلك الغار الصغير إلى أن وصلنا إلى نهايته، خرجنا إلى ساحة كبيرة ومتفرعة فيها العديد من الممرات، استدرت ناحية رمزي وقلت:

- زعما يكونوا دخلو هنا؟

اشتعل الفضول في عقلي وقررت أنّني سوف أكتشف هذا المكان ولو كلّفني ذلك حياتي، ما أن وضعنا خطوة للأمام حتى سمعت قادة الرحلة ينادون علينا، فقد كانوا يبحثون عنا، خرجنا نزحف من جديد إلى خارج ذلك الغار الضيّق، لأنّني لا أريد أن يكتشف ذلك أيّ أحد...

وجدنا كل أعضاء الفريق ينادون علينا، خرجت أنا ورمزي من ذلك الغار بسرعة لكي لا يكتشف أيّ أحد أنّنا دخلنا إلى ذلك المكان، تعثّرت قدمي والْتَوَت في أحد الصخور الموجودة في أرضيّة الكهف، وقعت أرضا واشتد الألم في قدمي ولم أستطع المشي مجددا، اتّكأت على كتف رمزي ورحنا نتبع أثر الصوت حتى وجدنا رفقاء الرحلة واقفين وكلّ واحد فيهم يبحث في زاوية من زوايا الكهف، التقينا بهم، لاحظوا أنّني أعرج بقدمي، كان قائد الرحلة يحمل معه عدة طبيّة، نزعت حذائي، ربط قدمي، ثمّ انتهت الرحلة وعدنا إلى وسط المدينة ثمّ كلّ واحد فينا اتجه إلى بيته، ونحن في طريق العودة قلت لرمزي:

- لازم نرجعو

BROUILLON

قال: وين؟ راك تقصد على هداك الغار الصغير؟

قلت: إيه، راني حاس بلي ما كانش لي شافو قبلنا.

وصلنا إلى المدينة التي نسكن فيها، كانت قدمي تؤلمني بشدّة وانتفخت وتغيّر لونها إلى الأزرق، وصلت إلى البيت، حملني والدي إلى المستشفى، عملت فحوصات، لم تنكسر قدمي لكن الطبيب أخبرني أنّني أحتاج إلى بضعة أيّام لكي أرتاح، بعد أربعة أيّام اتّصل بي رمزي قائلا:

- قالولي ناضتلك حبة باطاطا في رجلك.

قلت: لا، راهي بدات ترتاح.

قال: فكرت في هدرتك كيما قلت، نرجعو للغار هذاك، بما أنّك مريض نروح أنا وكي نرجع نقلك واش لقيت.

قلت: راك متأكد؟ راني خايف تكون آخر مرة نشوفك فيها، خاطر الذاكرة تاعك تاع حوتة بالخف تنسى.

قال: يا ودي نروح وخلاص ماش حاب نخلي الفضول في عقلي.

قلت: كيما تحبّ المهم ما تقول لحتى واحد، خاطر راني حاس بلي الغار هذاك فيه ألغاز.

رنّ الهاتف، رمزي يتصل :

- صباح البونجوغ رمزي.

- صباح الهم يا وجه المقلة.

- رحت كيما قلتلي ولا لا؟

@EL-MOUTHAKAF

- نعم، لقد اكتشفت ممرّا يقود إلى بوابة حديديّة كبيرة، لقد انبهرت من قوّتها وصلابتها، هل لك أن تأتي معي غدا لنحاول فتحها؟

- مع من ذهبت البارحة؟ لا أريد أن يكتشف أيّ أحد ذلك المكان.

- لا تقلق، لا أحد يعرف سرّنا، لقد ذهبت أنا وأخي وصديق أخي وابن عمي وابن خالي.

- لا لا لباس، شغل راني نهدر مع روحي كيما قتلك ما تحلب حتى واحد، كان زدت شوية تعيط لبلماضي يجيبلك ليكيب ناسيونال، على كلّ حال ما هي العُدّة التي سنحتاجها غدا؟

- أحضر معك شينيول، وأنا سأحضر مفكّ براغي ومطرقة ومنقار.

- ماذا؟ شينيول؟ وين نبرونيشها؟ في مخك؟

- لا تقلق معي باور بانك.

- يا راجل أنت بنادم ولا فريجيدار باور بانك لومبة مايشعلهاش.

-آه وماذا نفعل؟ المهم أنّنا نحضر معدّات خاصة تساعدنا في فتح تلك البوابة.

- لا تخبر أيّ شخص آخر بسرّنا وإلّا سأيبّسك وأضعك ماكلة للجاج.

التقيت رمزي في المساء، أراني بعض الصور لتلك البوابة، كانت بوابة متوسطة الحجم دائريّة، فيها نقوش ذهبيّة في الجزء العلويّ مكتوبة بلغة لا أدري أيّ لغة هي، وضعتها في الحاسوب وقمت بتعديلها ببرنامج فوطوشوب لكي تظهر الصورة وتلك الكتابة بشكل جيّد، ربما هي لغة بونيقيّة أو شيء

BROUILLON

من هذا القبيل، لكن أثناء بحثي في الإنترنت، تأكّدت بالفعل من أنّها اللغة البونيقيّة، أخذت أجول من موقع لآخر حتى توصلت إلى حروف اللغة البونيقيّة، أخذت تلك الحروف التي في الصورة التي أحضرها رمزي وضعت ورقة وقلما أمامي وكتبت تلك الجملة حرفا بحرف حتى توصلت إلى ترجمتها، وكانت ترجمة العبارة تقول "أيُّ أحد جرّب الدخول إلى هنا كانت نهايته مأساويّة ".

عندما رأيت تلك الجملة أصابني خوف شديد لدرجة أنّ بطني آلمتني، ثمّ اكتشفت أنّها ليسطومة، نعم لقد أكلت صحنا كبيرا من الشخشوخة في عرس جاري.

أغلقت الحاسوب ثمّ فتحت حقيبتي، وضعت بعض الأغراض استعدادا ليوم غد، هذه المرّة كان عليّ أن أكون أكثر حذرا فذلك الكهف كبير جدا و ذلك الباب الذي وجده رمزي أكيد يخفي أمرا ما، أحسست أنّني مقبل على مغامرة كبيرة وخطيرة ولهذا وجب عليّ توديع أهلي أونسيجامي كاشما يصرى.

كان أبي جالسا في الغرفة يحتسي القهوة ويشاهد الأخبار في قناة الجزائريّة ويضع كلّ تركيزه صوب التلفاز، وكلّه أمل يزيدولوا في الشهريّة.

جلست أمامه ثمّ رمقني بنظرة وقال: خير أطفل كاشما تحتاج ول؟

قلت: لا، أبي أريد أن أتحدّث معك في أمر مهم.

قال: ياو ماعنديش، واش أبن عمي نوكّل فيك، نقري فيك، نلبس فيك، عايش ڤبة واش نزيدلك.

@EL-MOUTHAKAF

تبسمت ابتسامة النصر لأوّل مرة، أبي لم يستطع قراءة أفكاري، قلت:

- لا يا أبي، أنا لا أريد منك شيئا، فقط أريد منك أن تسمعني.

قال: أهدر يا وجه السفيريّة، واش كاين؟ لكان على بنت مسعود والله ما دخلت لداري. قلت: يا بابا تخليني نهدر ولا تبقى تغلي كي الكوكوطة.

بدأت أتحدّث حول المغامرة التي سأخوضها، وأنّني سأكتشف شيئا لم يسبق لبشر أن اكتشفه من قبل، وربّما سنصبح أغنياءً وأشتري سيارة فخمة لطالما حلمت بها،... وبينما أنا أتحدّث سمعت صوت الصرصور؛ نعم إنّه الصوت الذي ينبّهك أنّك تتكلّم مع نفسك ولا أحد يُعيرك اهتماما، استدرت ناحية والدي فوجدته نائما، آلمني ذلك كثيرا، ألهذا الحد لا أحد يستمع إليّ؟ وضعت يدي على كتف أبي وقلت:

- يا بابا هاني نهدر معاك.

قال بالحرف الواحد:

- طفي التلفزيون وطفي الضو وتبخّر من أمامي.

دخلت أمّي للغرفة ووجهها مخطوف:

- ها وليدي رايح تحرق وتخليني، ها وليدي شكون لي بيا، ها وليدي خاف مولاك يفرجها ربّي كمل قرايتك ويشوفلك باباك خدمة في البلديّة.

أمسكت أمّي من يديها وقلت: يا أمّي أنا لا أنوي الهجرة من البيت، أنا ذاهب في مغامرة كبيرة ربما ستغيّر مجرى حياتي وحياتكم، فقط ادعِ لي، أعدك أنّني سوف آخذك أنت وأبي إلى الحج.

ثم قالت أمّي: أوكي.

BROUILLON

كانت ليلة طويلة لما فيها من أفكار ووساوس وخوف من المجهول، ممّا يمكن أن يحدث لنا، لأنّني لأوّل مرة سأخوض معركة لا أعلم فيها عدوّي، كنت في تلك الليلة أستيقظ بين فترة وأخرى مخطوفا، كانت تراودني كوابيس وتخيّلات في ذلك الكهف.

رنّ الهاتف:

- واش رمزي؟

- نوض يا جدك راح الحال.

- شحال راهي الساعة؟

- راهي ٣ تاع الصباح.

- والله يا خويا القلب لي عندك راه بارد على موسكو، ياودي رايحين لمدغشقر حنا؟ خلينا نرقدو على الأقل إلا متنا نموتو شبعانين رقاد، إيه وماتنساش تقول ليماك ديرنا شوية تاع سفنج ندوه معانا.

اتصل بي رمزي مرة أخرى على الساعة ٨ صباحا، نهضت من فراشي وكلّي أمل بأنّني سأنجح في هذه المغامرة، وجدت أمّي تنتظرني أمام الباب، في يدها ملعقة من السكر، قالت:

- كول وليدي باش تولي سبع.

آه لم أقل لكم الملعقة كان فيها الملح، شربت "سطل ماء " لكنّي كنت عازما على المضي قدما.

@EL-MOUTHAKAF

وجدت رمزي ينتظرني أمام باب المنزل، كان يرتدي ملابس جديدة وماشط شعره بالكورونـدار.

قلت له: هل نحن ذاهبون للعرس؟

قال لي: باش تشوفني بنت عمي لخضر.

تركت له Vu ومضيت في طريقي أسابق الأفكار وفي كلّ مرة أنزع من ظهري الحقيبة لأتفقّد المعدات التي أحضرتها معي، وأستغفر الله وأدعو أن يسترنا ويحمينا، قطع أفكاري رمزي قائلا:

- اسمع نسيت الشارجور.

رمقته بنظرة وقلت:

- شارجور تاع جدك هاي ليك بنت عمك لخضر تشبه لباباها.

غضب رمزي على ما قلته في فتاة أحلامه لكنّني لم أعره اهتماما، وضعت الكيتمان وأكملت طريقي، قالي لي رمزي:

- ما رأيك أن نتّصل بحسان ليأخذنا بسيارته.

قلت: لا، غير داك البنادم مانروحش معاه، هداك طاكسيور تقول عليه خياط يحسب الطريق بالميطرا.

وقفنا قليلا حتى جاءت الحافلة، انطلقنا، كانت وجهتنا نحو وسط المدينة، اشترينا بعض الطعام لكي نأخذه معنا، نزلنا في ذلك المنحدر، بدأنا بالمسير نحو الجبل المقصود، كان رمزي يتحدّث عن بنت لخضر طوال الطريق، مازحته قائلا:

BROUILLON

- اسكت الدنيا معمرة حشيش، يعودوا يوصلوا الهدرة لاباها الاخضر الحشيشي.

كان الجبل عاليا ويحتوي على الصخور والمطبات الكثيرة لكنّنا معتادون على تسلقه، فأنا ورمزي كثيريْ التنقل في الطبيعة، وأخيرا وصلنا إلى الكهف، دلفنا إلى الداخل وتوجهنا إلى ذلك الغار الصغير.

قلت لرمزي:
- هل أنت مستعد يا صديقي؟
قال لي: هاي هاي كابتن.
قلت له مازحا: والله ماخفتش من ربّي والملح لي بيناتنا ويقولوا يحقر لي قل منو نرمي جدك تهبط مرحي كي النجارة.

أخرجنا المعدات التي نحتاجها في الداخل، ارتديت بدلة الشونطي التي كنت أعمل بها في مجال التلباس، بينما رمزي لم يُرِد أن يُغيّر ملابسه، شغّلنا أضواء الهواتف ودخلنا نزحف ببطء داخل الكهف، لم أخف هذا الغار من قبل مثل هذه المرة، لكن هذه المرة أحسست أنّي سأخوض مغامرة صعبة.

بدأنا طريقنا بالزحف في الغار، كنت أنا في المقدمة ورمزي خلفي، لاحظت أنّ جدران الغار لم تعد سميكة كما كانت، كنت كلّما أضع يدي

@EL-MOUTHAKAF

تتفتت الصخور، دقّ ناقوس الشك والخوف في عقلي، سألت رمزي قائلا:
-نهار لي جيت أنت والعيباد لي رايحين ينشروا السر تاعنا خبر عاجل في الحومة تيفي دخلتوا نورمال ما مسيتوا حتى حاجة؟
أجابني رمزي والوحل يكسو وجهه: كثر خير وليد عمي جاب بالة وفاس وحفر الجوانب باش ندخلو في رحبة.

أجبته قائلا: ماذا؟ شكون قالو أحفر رايحين نغرسو البطاطا؟ شوف رمزي أدعي ربّي يريب علينا الغار خاطر إيلا سلكنا راح نريبلك ظهرك.
أكملنا المسير وأنا أراقب سقف الغار بحذر، كنت أفكّر في أمر إذا حدث سينهار في لحظات ولسوء الحظ لقد عطس رمزي، نعم هذا ما كنت أخشاه، أدرت رأسي ناحية رمزي، بدأ الغار بالانهيار، لكم أن تتخيّلوا مدى بشاعة الأمر، وصرخت في رمزي قائلا:
- ازرب أمخلوق خليتها على جدنا، الله يعطيك الساحق واللاحق والرصاص المتلاحق. واصلنا الزحف والانهيار يلحق بنا، كمية الأدرينالين في تلك اللحظة كانت تعادل صحن الشخشوخة الذي تناولته في عرس جاري، ما هي إلّا لحظات حتى خرجنا للغار الكبير لكن للأسف الطريق الوحيد الذي نسلكه للخارج قد أُغلق بسبب الصخور المتراكمة.
رمقت رمزي بغضب وقلت:
- تعرف واشنو الفرق بينك وبين النحس، أنت عندك بطاقة هوية وهو ماعندوش.

BROUILLON

أصابني الإحباط في تلك اللحظة، لم أدرِ ماذا أفعل، أحسست أنّها نهايتنا ولا طريق للعودة ولا نملك أيّ طريقة لطلب النجدة، كان رمزي يحدّق بي وأنا أتكلّم مع نفسي ثمّ قال:

- واش نديرو دوك؟

أجبته بغضب: واش نديرو؟ أنت بنادم ولا مغرف؟ يا مخلوق ماعرفتش تشد نيفك حتى نخرجوا على خير واعطس لغدوة الصباح.

افترشت الأرض أنظر إلى سقف الغار ثمّ أيقنت أنّني قسوت عليه بعض الشيء مع أنّه يستاهل سبعة كيلو تاع صقلة، ثمّ قلت:

- ماعليش صاحبي كاتبة، المهم نتكلو على ربّي نكملو المغامرة تاعنا، كي نعودو راجعين نشوفو كيفاش نديرو.

ابتهج رمزي وأمسك يدي لكي أقف ثمّ انطلقنا، أخرج رمزي من جيبه خريطة الطريق التي توصلنا إلى البوابة، باشرنا في الرحلة واحدة بواحدة حتى وقفنا عند البوابة.

كانت ذات تصميم خرافيّ؛ صلبة جدا وثقيلة بالكاد تحتاج ٣ أشخاص لفتحها فحسب لا لتحطيمها لأنّها لن تتحطّم ولو بصاروخ.

وضعنا حقائبنا على الأرض، أخرج كلّ منّا ما يحمل في حقيبته، بالنسبة لي أخرجت مطرقة وعمودا حديديًّا، بينما رمزي لم يحضر شيئا، أحضر معه فقط فرشاة أسنان ومعجون أسنان وبولون، نظرت له نظرة طويلة وقلت:

- لا حول ولا قوة إلّا بالله، لي فيك يكفيك، روح اطلق روحك بعيد وخليني ندبر راسي.

@EL MOUTHAKAF

نظرت إلى فتحة المفتاح؛ كانت فتحة متوسطة نوعا ما، حاولت أن أنظر ماذا يوجد داخل الحُجرة لكن لم أرَ شيئا سوى الظلام، نظرت إلى كلّ حواف الباب لم أجد أيّ منفذ لكي أغرس العمود الحديديّ، غريب أمرها هذه البوابة، هل من الممكن أن تكون طريقة فتحها للأعلى؟ لكن هناك فتحة للمفتاح وهناك أيضا مقبض، ناديت على رمزي قائلا:

- أرواح نجربو نطبعوها تبانلي فيها قالب، دير في بالك شغل رايحين نطبعو بابور، ثقيلة يا جدك.

حاولنا أن ندفع بكلّ قوّتنا، لكن كلّ محاولاتنا باءت بالفشل، سقطنا أرضا من شدّة التعب، رفعت رأسي إلى السقف، لمحت رسما وأمامه عبارة "استخدم قوة عقلك أيّها الغبيّ، الباب يفتح بسحبه للأمام".

وقفت مخطوفا وسحبته نحوي، نعم فتح الباب، أطلق رمزي العنان لغبائه قائلا:

- وكانت باينة تكمل كيما هاك سيفيني عمري أنا وياك.

أجبته قائلا: ألحقني وتمس حاجة نطرطقلك الرقبة تاعك.

دخلنا للغرفة، انصدمت؛ الغرفة فارغة، أين الكنز؟ لا يوجد شيء سوى عِصيّ موضوعة في الحائط مشتعلة بالنّار تضيء المكان، وقفنا في وسطها وكلّ منّا شارد الذهن حتى نطق لساني قائلا:

-أنا وجهي وجه audi ياو فيلو مانكسبهاش، إي وي واش يخسر لي عمرو ما ربح. بينما رمزي كلّ همه بنت عمه لخضر يعبر عن حزنه قائلا:

- مريم إكسكيوزي موا سونتيمو جوسوي تخيست، أنا سوف أنتحر، سوف أبلع فرشاة الأسنان حتى تخرج روحي.

BROUILLON

قاطعته قائلا: ياو غير وجد كرعيك وذرعيك باش تنحي الحطام لي في فم الخرجة تاع الكهف بلا جدك غير تنقيها حبة بحبة.
اقترب رمزي من العِصيّ المشتعلة، ما إن أمسكها حتى فُتحت الأرض من تحتنا وسقطنا للأسفل.....

فُتحت الأرضيّة على مصراعيها، سقطنا داخل فُوّهة كبيرة، انقطعت أنفاسي للحظات ثمّ أطلقت العنان لحنجرتي:
- اسكوغوني... اسكوغوني... (أنقذوني) أيما أجري ليا، يا رمزي الله لا يتربحك.
بدأت أفكّر فيما سيحدث لي عندما أصل إلى الأرض، لا احتمال آخر سوى أنّني سوف أنفجر كالبطيخة، قلت أشهد أنّ لا إله إلّا الله وأشهد أنّ محمدا رسول الله، ما هي إلّا لحظات حتى ظهر لنا نور قويّ، ما إن دخلنا داخله حتى أغمي عليّ أو بالكاد أصبحت في عداد الموتى.

استيقظت على صوت العصافير وخرير المياه وأصوات الرياح تداعب الأشجار، فتحت عينيّ بصعوبة، قابلتني طبيعة خلّابة لم أرَ مثلها من قبل، بساط أخضر يمتدّ مدَّ البصر، أزهار وأشجار ونهر صغير يداعب أحجاره، ما يجعلك في لحظة كمولود جديد سمع صوت الأذان في بداية حياته.

@EL MOUTHAKAF

قلت في قرارة نفسي: هل أنا في الجنّة؟ هل أنا ميت؟ هل ذلك النور كان بوابة لدخولي للجنّة بعدما قطع آخر نفس؟ هل يعقل أنّ نهاية حياتي كانت سهلة لهذه الدرجة ؟ أدرت رأسي أبحث عن رمزي، وجدته ممددا على بعد عشرة أمتار ثمّ قلت: رمزي هنا مافيهاش، نهضت بصعوبة، صداع خفيف في مقدّمة رأسي، رُحْت ناحية رمزي، حرّكته قليلا حتى استعاد وعيه، فقال:

- رانا في الجنّة، رانا في الجنّة، الحمد لله لي جمعنا ربّي مع بعض.

قلت: يا ودي نوض أنا مين شفتك هنا عرفتها بلي مافيهاش.

قال: وين رانا مالا؟

قلت: شوف رمزي، مين داك ماتعميهاش مي هاد المرة بينتلي بلي الغباء تاعك عندو فائدة في بعض المواقف.

بدأت أراقب المكان وقلت محدثا رمزي:

- أسمع ياك حنا خرجنا من الغار؟

قال: هيه بصح وين راهو، راني نشوف في الدنيا كلّها حشيش وشجر.

قلت: إيه هادي لي مدوختني، كيفاش وصلنا هنا؟ آخر مرة شفيت على كيما دخلنا في الضوء حتى فطنت لقيت روحي مستف مكتف مغلف في الكوانة قدام ديك الشجرة.

قال: أنا ما حسيت بوالو، كي شغل كنت نحلم.

قلت: ياودي كي خرجنا من الغار رانا ملاح والله وندريها بدلنا الكوكب كامل، هيّا نتمشاو من بعد تبان وين رانا.

BROUILLON

هذا المكان ليس طبيعيّا أو بالأحرى طبيعة لم تَمُسَّها يد بشر من قبل، باشرنا في الدخول للغابة؛ كانت غابة جميلة جدا ذات أشجار كبيرة وضخمة، أصوات العصافير تأتي من كلّ صوب، قطع اندهاشي رمزي قائلا:

- أسمع، ليسطوما راهي تزغرت، جعت يا خويا جعت.

قلت: كول راسي، منين راح نجيلك؟ حنا حايرين في جد المصير تاعنا ونتا تخمم على كرشك.

ردّ رمزي قائلا:

- ما كان والو سافرنا عبر الزمن برك.

قلت: شوف يا مخلوق، ماتزيدنيش همك، ديجا أنت هو لي وصلت جدنا هنا ونتا لي بسبتك تغلق الكهف.

ردّ رمزي بعصبيّة:

- كان ماش أنا كان راك ما زلت طبّع في ذاك الباب.

قاطعته قائلا: أوه أوه أوه ميستر إينشتاين كالم توا سينفوبلي، الباب أنا لي فتحتو ونتا يديك فيهم الملح لازم تخربش، قولي برك واش وصلك لحطبة شاعلة فيها النّار؟ علاش يا المرهوج؟

رفع رمزي إصبع يده ليهددني ثمّ قطع تهديده صوت قادم من بعيد:

- هاي أنتما، ماذا تفعلان هنا؟

توقّفنا عن الجدال عند سماع الصوت الذي جاء من بعيد.

@EL-MOUTHAKAF

تقدّم إلينا ببطء، كان شابا قويّ البنية، وجهه ملثّم، لا يظهر لنا إلّا لون عينيه الخضراوتين وحاجبان كثيفان، كان يرتدي بذلة من الفراء ويحمل في خصره خنجرا حادا وفي كتفه قوسا، نظر إليّ رمزي في استغراب وقال:

- هذا ماش ماوكلي.

قلت: لا لا ماوكلي صغير، هذا إذا ماكذبتنيش عيني طرزان.

وقف أمامنا وهو ينظر إلينا بحزم ثمّ قال: ألم تسمعا كلامي؟ أجيبا عن سؤالي، من أنتما، وماذا تفعلان هنا؟

نطق لساني قائلا:

- واشبيك طايح بطاطا خشينة(ما بك تزمجر علينا)؟ تسالنا غراف ملح ول؟

ردّ رمزي قائلا:

- أسمع حبيبنا يهدر بالفصحى، مانكونوش زلقنا في كاش فيلم مكسيكي مترجم؟.

استلّ الشاب من خصره الخنجر وقال:

- إن لم تجيبا سوف أقطع أعناقكما هنا.

نطق لسان رمزي مع نفسه قائلا:

- يا يما فشليا رجلو (رجليا فشلو).

أشرت إلى رمزي ليتقدّم نحوي وكلّمته بصوت خافت:

- أسمع كاينة حطبة بحذاك وبلوكة تحت رجلي، أنت أرفد الحطبة وأنا نرفد البلوكة غير يقرب نطفيو عليه الضوء.

BROUILLON

واصل الشاب النظر إلينا وأخذ يتقدّم ببطء ويسأل مجددا:

- لا أريد أن أعرّضكما للأذى، أجيبا فحسب.

قلت: يا خويا أنا بروحي ماش فاهم كيفاش جيت هنا.

نطق رمزي: إيه كنّا في كهف من بعد لقينا رواحنا هنا.

لاحظ الشاب طريقة كلامنا ولباسنا، ثمّ قال:

- ما اسمكما؟

استشاط رمزي غضبا وقال:

- شكون أنت حتى نعطيك اسمي؟ جادارمي، بوليسي، ولا حاكم الدواسا تاع السوسيال؟

أشرت لرمزي لكي يخرس وقلت:

- شوف صاحبي، إذا كان جيت باش زعما تاڤريسينا غير أنساها هادي، نعرضك على دبزة الخاسر يمد واش عندو.

أعاد الشاب خنجره إلى خصره وتغيّرت ملامح وجهه وقال:

- لم أرَ مثلكما من قبل، سواءً من لباسكما أو من طريقة كلامكما، أعتذر على قساوة استقبالكما، من الواضح جدا أنّكما غريبان ولا تعرفان شيئا عن هذا المكان.

أجبته قائلا: المزية لي عرفت قدرك، أني مسكون مركوب.

لكنّ داخلي يرتعش خوفا فنحن لم نعتد على هذه المواقف، آخر معركة كانت مع زميل لي في الدراسة، سرق منّي ممحاة، تشاجرنا، ضربته وضربني انتهت المعركة بكف كف من عند الأستاذ.

@EL-MOUTHAKAF

صافحني الشاب وقال:

- مرحبا، أنا يوبا صائد مكافآت وتاجر بالمدينة.

قلت: صحا خويا يوبا معاك أسامة وهذا رمزي الرهج.

ثم قلت: كيفاش صائد مكافآت؟ ما فهمتش، حتى نتوما عندكم مسابقة حك تربح تشري تيكي ونتا وزهرك؟

أجابني وملامح التعجب على وجهه:

- ماذا؟ لم أفهم كلامك.

قلت: أنت صائد مكافآت، كيف ذلك؟

قال: أنا أعمل مع منظمة سريّة، أقوم بمهمات خاصة لصالح الدولة، وعملي هو أنّني أقتل كلّ من يريد القيام بشيء لضرب استقرار وطننا.

درت ناحية رمزي قائلا:

- خير كبير جايني معاك حبيبي.

ثم أردفت قائلا : يعني أنت كيما مراد علم دار مي نسخة قديمة.

قال: لا أدري ما تقوله لكن بما أنّكم غرباء عن هذه المنطقة ولم تدخلوها عن قصد فقد عَفَوْت عنكم.

نطق لساني قائلا: علاش رزق باباك ولا غارس الدلاع هنا؟

صمت برهة وقال:

- أسرعا بالخروج من هنا قبل أن تأتي دوريّة التفتيش لأنّهم لا يرحمون.

قلت: يالسي يوبا ما اسم هذا المكان؟

قال: الغابة السوداء.

BROUILLON

جلت ببصري وقلت: عقلك لي مسوّد وين راك تشوف في السواد.

قال لنا: هيّا أسرعا، أخرجا من هنا، اتجها يمينا.

قلت: اصبر يا خويا ضربك التريسيتي ولا، يا ودي وين رانا؟

قال وهو يجري مبتعدا: انطقلا جهة اليمين فحسب، ستكتشفان ذلك بعد خروجكما من الغابة.

اتجهنا يمينا كما قال يوبا، لكن بدأت الشكوك والوساوس تسيطر على عقلينا، خاصة بعد معرفتنا بأنّنا في مكان غريب، كانت الغابة متشابهة جدا بحيث إذا التفتّ إلى الخلف وعدت إلى الأمام ستسلك طريقا آخر، قلت لرمزي:

- أسمع الحالة هنا تتشابه ماتغفلش، قالك روح يمين روح يمين.

أكملنا مسيرنا، لا أدري كم من المسافة قطعنا، لم نستطع قياسها إلّا عن طريق الألم والتعب الذي نزل على قدمينا، ناهيك عن الجوع والعطش، حدّثني رمزي قائلا:

- كان غير قلنا ليوبا يعطينا مورصو كسرة ولا كاش مورصو خبز، يا خويا أني بديت نطيح أونبان.

مازحته قائلا: كان جات عندي الجثة تاعك كان راني نشارك في الأولمبيات تاع المصارعة الحرة.

تبسّم بصعوبة وقال: نريحو شوية والله ماني قادر نزيد خطوة.

@EL MOUTHARAF

سقطنا أرضا من شدّة التعب، كلّ واحد منا كان يلهث من شدّة التعب، بدأ رمزي بالهذيان قائلا:

- إيه دير شوية هريسة ومايوناز، لالا في نص خبزة.

التفتُّ إليه، رقّ قلبي لحاله وقلت:

- أستحمل صاحبي، مابقاش ونوصلو للمدينة لي قال عليها المخلوق هذاك ونشوفو كيفاش ندبرو لقمة.

وقفت واستجمعت قواي، رفعت رمزي من الأرض وقلت:

- هيّا خويا كوراج مابقاش بزاف

أكملنا طريقنا، لكن لم تظهر أيّة إشارة على نهاية الغابة، مازحت رمزي قائلا:

- يوبا راح يبعثنا للسعودية مشيا على الأقدام يا خويا.

أكملنا المسير بخطى متثاقلة حتى سمعت صراخا قويًّا لم أدرِ مصدره، وصوت رجال يقولون: أمسكوه أمسكوه، لا تتركوه يهرب، اقضوا عليه، تشوّشت عقولنا في تلك اللحظة، قلبي يدقّ بقوة من شدة الخوف، اختبئنا في ظهر شجرة لكن لم نعلم أين مصدر الصوت، قلت لرمزي:

- أرواح أرواح مور ديك الكومة تاع الحشيش، هنا يشوفونا.

اختبئنا وبقينا نتحسس مصدر الصوت، كان يقترب شيئا فشيئا وأنا أقول: يا ربّي سلكها على خير، و قوة أنفاس رمزي كانت قادرة أن تثير زوبعة رمليّة.

قلت: أشششش أتنفس بعقلك،دوك يفيقولنا.

PROUILLON

حتى ظهر رجل مُكبّل اليدين، يجري ويلتفت وراءه، انعقدت قدماه ووقع على الأرض، أراد أن يقف من جديد لكن جاءه سهم غُرس في قدمه، حاول أن يزحف بيديه لكنّه لم يقوَ، وقف عند رأسه رجلان ضخما الجثة ملثّمان مثل يوبا، وضع أحدهم قدمه على ظهره وقال:

- هل كنت تظن أنّنا حمقى لندعك تهرب؟ نحن نعشق الاستمتاع بخوف ضحايانا، ها قد وقعت بين يدينا مجددا، تقدّم الملثّم الآخر وسحب خنجرا من خصره وذبح به ذلك الشخص ببرودة.

بالنسبة لي ولي لرمزي كان العرق يتصبب من شدّة الخوف، قلوبنا تنبض نبضا قويًّا لدرجة أنّنا ظننّا أنهم سيكتشفون أمرنا من صوت النبض.

قال أحد الملثّمَين لصديقه:

- هذا الغبيّ ظنّ أنّه نجا بعدما وصل إلى نقطة الخروج من الغابة، هيّا لنبحث عن غيره ثمّ عادا أدراجهما يجريان.

نظرت إلى رمزي وهو بدوره نظر إليّ وقال:

- ذبحوه كي شغل خروف.

قلت: سمعت كي قال لصاحبو نقطة الخروج من الغابة؟ سما مابقالناش بزاف ونخرجو، أسمع درك نديماريو نجريو مانحبسوش تبانلي كاين منهم بزاف كيما قال يوبا، على حساب ما فهمت راهم موزعين في كامل الغابة وزيد مسلحين سما يلحقك يلحقك مافيهاش، زيّر سباطك وهيّا نقلعو.

@EL-MOUTHAKAF

انطلقنا بأقصى سرعة وكلّنا حذر من أن يُكتشف أمرنا، وصلنا إلى هضبة عالية نوعا ما تسلقناها بخفة، لا ليس بخفة، بل إنّه الخوف يجعل منك مخلوفي في الركض.

وأخيرا آخر شجرة تركناها خلفنا، خرجنا إلى طريق معبّد لكن ليس كما في عالمنا؛ كان عبارة عن حصى مصفوفة بطريقة عجيبة، أكملنا المسير حتى صادفنا عربة تجرّها الخيول وكان سائقها كهلا يرتدي ثيابا بالية، يحمل خلف العربة كمية معتبرة من الحطب، أشرت له لكي يتوقّف ثمّ قلت:

- يا عمو الله يعطيك طولة العمر ارفدنا معاك.

سألنا قائلا: من أنتما؟ ماذا تفعلان هنا؟ ما بكما؟ ماذا حدث لكما؟ يبدو على مُحَيَّاكم الخوف.

قلت: لا لا، كنّا في العرس وشطحنا بزاف عرقنا توصلنا ولا لا؟

قال رمزي:

-أرجوك يا عمي نحن في أمسّ الحاجة للذهاب إلى المدينة.

ثمّ قال: هيّا اصعدا.

صعدنا على متن العربة وبصرنا لا زال يجول نحو الغابة ونحن نبتعد عليها رويدا رويدا.

تنفسنا الصعداء، وجوهنا كانت شاحبة من الخوف والتعب والعطش، نظر إلينا سائق العربة وقال:

- هل كنتما في الغابة؟

BROUILLON

قال رمزي: إيه وخرجنا الحمد لله كنّا راح...

ضربت رمزي على كتفه وقلت:

- بلّع، أنت مجنون صح، تهدر برك وبالاك يكون واحد منهم.

أجابني رمزي قائلا: تشوف فيه عايش بشطبة وكاس دم، السيد خالص قريب يموت كيفاش راح يخدّموه معاهم؟

قلت: أسكت وخلاص ما تهدرش، أجبت الشيخ قائلا:

- إيه طاحتلنا السيارة أونبان، جينا نشرو ليصونص.

نظر إلينا باستغراب وقال:

- يا بنيّ ماذا تقول؟ من أنتما؟ ولماذا هيئتكما تبدو غريبة؟

قلت: الحاج من فضلك تخف شوية، خاصنا نوصلو للمدينة في أقرب وقت.

نطق رمزي قائلا: نريد شُرب الماء يا عمي من فضلك.

نظر إلى العربة وقال: تجده تحت الحطب.

وقف رمزي بلهفة وأحضر قنينة الماء وأخذ يتجرع بشراهة، قلت:

- بالعقل أطفل بالاك تخلصو وتخليني ناشف.

شربنا الماء الحمد لله، استعدنا القليل من الطاقة، قلت لرمزي:

- اسمع ياك نعرفك كي تكون غبيّ وكي تكون تتغابى.

قال: إيه؟

قلت: كيما كنّا في الغابة وقتلي بلي سافرنا عبر الزمن، قلتها منك صح ولا ترمي برك؟

قال: لا والله غير نتمسخر برك.

©EL-MOUTHAKAF

قلت: تبانلي كلامك صحيح، قبيل يوبا يهدر الفصحى من بعد هادوك لي قتلوا السيد يهدرو العربيّة، قلت بالاك مرتزقة برك يقتلوا الناس ودرك هدا الحاج راني خايف نوصلو للمدينة لي راهم يهدروا عليها نلقاو رواحنا داخلين في كاش سيري تاع الرسالة ولا فايكينج.

قال رمزي: ههه الفايكينج يهدروا العربيّة؟

قلت: وين عمبالي أنا، توقع كلشي.

أكملنا طريقنا والشيخ يسترق منّا السمع فأزعجني ذلك وقلت:

- الحاج أرفد وذنك راهي طاحت عندنا.

قال: ماذا؟

قلت: والو علاش مابدلتش العربة؟ عندك السيسبونسيو ميتة.

صرخ رمزي قائلا: شوف شوف.

أدرت رأسي في جزء من الثانية؛ مدينة كبيرة كانت تبدو وكأنّها مبنية فوق صخرة، كان يطلّ من بعيد قصر كبير ذو قبة ذهبيّة، كان لونها يمتزج مع ضوء الشمس، مباني ومنازل بعضها من الحطب وبعضها من الطين لكنّها كانت ذات ألوان زاهية تسرّ كلّ من نظر إليها، أصوات النّاس عالية رغم أنّنا لم نصل إليها بعد، نطق لساني لرمزي قائلا:

- ليك الصوت تاع النّاس شغل سوق الجمعة.

أجابني رمزي قائلا:

- ياك راك تخمم واش راني نخمم؟

قلت: أنا جامي خممت واش تخمم نتا، أصلا أنت مين تخمم تعميها، قول واش كاين؟

BROUILLON

أشار رمزي إلى بطنه وقال: نعمرو الكريشة.

قلت: إيه، المهم نمشو وحدة وحدة ومين نشمّو اللوش نهربو.

قال: أوكي.

نزلنا من العربة أمام باب حديديّ كبير مفتوح على مصراعيه، يبدو أنّه مدخل المدينة .التفت إلى رمزي قائلا: ليك النظام كيفاش، كلّ مدينة وعندها المدخل تاعها، تحسب كيما حنا تدخل لولاية خلاف بلافتة مكتوب فيها قسنطينة ترحب بكم.

لم أصدّق ما تراه أذناي، عفوا ما تراه عيناي؛ بيوت جميلة جدا، كان كلّ بيت يكتسي لونا مختلفا عن الآخر والشيء الأجمل أنّ كلّ البيوت كانت في خط واحد؛ و الشوارع منظّمة، عبارة عن مرصوفة وفي كلّ مكان تجد تاجرا يعرض سلعه على المارة، منهم من يبيع الفواكه ومنهم من يبيع الخضر ومنهم من يبيع الأقمشة ومنهم من يبيع الحُلي، كلّ شيء يخطر في بالك تجده هناك، كانت الشوارع مقسّمة، كلّ شارع مخصّص في مجال ما، أخذنا نتجول ونحن مذهولان، لم ينطق لساني إلّا كلمة سبحان الله، بقيت أعيدها في لساني مرات ومرات، في الحقيقة لم أرَ مثل ما أرى الآن، أعلم أنّ عصرنا متطور وكلّ شي فيه عصريّ، لكن صدقوني هذا المكان ليس عاديًّا، مررنا كذلك بشارع يبيعون فيه مختلف الحيوانات، وشارع مخصص للطعام، النّاس هنا مفعمون بالحياة، لباس كلا الجنسين محتشم، والأجمل في الأمر أنهم لا يلبسون اللون الأسود، ملابسهم كلّها مختلفة الألوان، نطقت لرمزي قائلا:

©EL-MOUTHAKAF

-غير حنا في وسطهم نوار إي بلون.

قدَمانا لم تتوقف عن المشي حتى وجدنا أنفسنا وسط دائرة كبيرة تتوسطها نافورة كبيرة، مياهها تتراقص كعروسة اكتست حلتها البيضاء، قلت لرمزي:

- يا خويا سبحان الله تشبه لبرشلونة لكن اختلاف في المباني برك.

ردّ عليّ رمزي قائلا: وهيه مخ الهدرة ماش راح ناكلو؟

ردّ لساني قائلا: يا خويا يا خويا، على كرشو يخلي عرشو، أنا مخي طار من واش راني نشوف ونتا تقول عليك تشوف بكرشك ماش بعينيك هيّا نديك ترهج يا الرهج.

عدنا إلى شارع المطاعم، شَمَمْنا أحلى الروائح، بطني لم تعد تقوى على التحمل، يجب أن ألتهم شيئا ما، ثمّ قلت لرمزي:

- كيفاش نديرو؟

قال: أنا رافد معايا سبعطاش نلف وخمس مية.

قلت: آه منك صح؟ يا ودي هادو عندهم عملة خلاف ماعلابالناش حتى إيلا يتعاملوا بالنقود ولا لا.

ثم أردفت قائلا : أصبر نسقسي.

دخلت على محل صغير يبيع الخبز، كان صاحبه شابا في مثل سني؛ قامة طويلة ضعيف الجسم، أبيض البشرة، عيناه عسليتان، حاجبان رقيقان، شعر بنيّ مائل قليلا إلى الحمرة، يرتدي مئزرا أبيضا وواقف وراء طاولة عالية وكبيرة تمتدّ من جدار إلى جدار، يضع فيها مختلف أنواع الخبز

BROUILLON

وفي الجدار الخلفيّ يعلّق فيه رفوف مقسّمة وفي كلّ واحدة منها كمية من الخبز، سألته قائلا:

- بشحال الخبز يا خويا؟

ردّ عليّ في تعجب:

- بنصف دينار.

درت ناحية رمزي قائلا:

- هات الصرف لي عندك، وقلت للبائع: هاك أعطيني بهاذو.

توقّف البائع برهة وأجابني بتعجب قائلا: ما هذا؟

قلت: واشبيك بياضو عينيك ول؟ دراهم هادو، نقود يا خويا.

قال: هذه ليست نقود مملكتنا، أيّ عملة هذه؟

قلت: يا خويا ياخي المهم دراهم، هادو عندنا نشرو بيهم قهوة وكرواسون وميلفاية وقرعة عصير ويبقالي الصرف.

قال: يا أخي أنا لا أفهم كلامك، ثمّ ما هذا اللباس الذي ترتديانه؟ من أيّ مكان أتيتما؟

قلت: جينا من المريخ، عندك مشكل؟ هيّا أعطينا الخبز سينو ياكلني الديناصور هذا.

كان رمزي ينظر إليّ باشمئزاز وقال: ديناصور تاع جدك كي شغل أنت ماجعتش.

قلت: إيه صحا درك نجيبلك تاكل ما تموتش برك

. البائع ينظر إلينا باستغراب ودهشة، قاطعت دهشته قائلا:

- هيّا خويا، هات الخبز، واش راك تشوف سيرك عمّار هنا؟

@EL-MOUTHAKAF

انفجر ضاحكا وقال: تفضّل يا أخي هذا من عندي، وخذ بعض النقود اشتريا شيئا تأكلانه.

أمسك بأربع قطع من الخبز وقدّمها لي.

قلت: أوه كثر خيرك خويا، أنت ليزوم أرواح نسلم على صاحبي.

بابتسامة جميلة قال: لا شكر على واجب، أتمنّى لكما زيارة ممتعة في مملكتنا.

قلت: في الحقيقة لم نأتِ في زيارة المهم ربّي يجيبلك قسم.

خرجنا ثمّ جلسنا في الرصيف المقابل لمحل ذلك الشخص الذي أعطانا الخبز، أخذنا نلتهم الخبز وكأنّنا نأكل اللحم من شدة الجوع.

قال لي رمزي: شحال عطاك داك السيد؟

قلت: ماعلابالیش.

ثمّ عدت للبائع سائلا: صديقي كم أعطيتني من نقود يعيشك؟

قال: أعطيتك عشرين دينارا.

قلت: وهل تكفي لسدّ رمق بطون لم تأكل منذ يومين.

قال: لا تكفي، تعالَ.

أعطاني عشرون إضافيّة ثمّ قال: هذه تكفي لثلاثة أيّام.

خرجنا من المحل، قلت لرمزي: يا خويا ناس كي الذهب الله يرضى عليه.

استدرت ناحية رمزي وقلت: راني ميت بالعيا خاصنا نلقاو بلاصة وين نرتاحو، زعما نلقاو فندق ناقص سومة نريحو فيه يومين؟

قال: المدينة كبيرة وعريضة نروحو نحوسو وخلاص.

BROUILLON

بعدما أكلنا وامتلأت بطوننا يجب الآن أن نعرف كلّ كبيرة وصغيرة عن هذه المملكة، نحن غرباء كما قال رمزي:

- رانا حراڤة يا خويا لازم نعرفو كيفاش الأمور تسير هنا.

قلت: قبل ما نحوسو على بلاصة وين نرتاحو نشوفو مول الحانوت يفهمنا، باين فيه وليد فاميليا ومايضرناش.

عدت إلى المحل، وجدته يبيع الخبز للزبائن، أشرت له بأصبعي أنّني أحتاجه في أمر ما، بعدما خرج الزبائن قلت:

- صديقي من فضلك سأصارحك بأمر لكن من فضلك لا تخبر أيّ أحد.

قال: لا تقلق تكلّم.

قلت: نحن لسنا من عالمكم أو بالأحرى سافرنا عبر الزمن.

قال: ماذا تقصد؟ كيف سافرتم عبر الزمن؟

قلت: هاوليك الرهجشتاين هو لي جابنا هنا، كنّا في مكان ثمّ لا أدري ربّما فجوة زمنيّة هي من أحضرتنا إلى هنا، المهم ما أريد معرفته هو اسم هذه المملكة، وأين تقع ومن حاكمها وكيف تسير أمور الأمن هنا، يعني كاين مشاكل ولا عافية.

قال لنا: اجلسا.

جلسنا أمامه وقال: هذه المملكة السوداء.

قلت: يا خويا ماش فاهم وين راكم تشوفوا فالسواد.

قال: ماذا قلت؟

قلت: أقصد لماذا تسمونها هكذا.

@EL-MOUTHAKAF

قال: لأنّ الحياة هنا همجيّة، لا حاكم ولا محكوم، لا نملك ملكا يرعى الشعب، كلّ فرد هنا يعتبر جزءا من الدولة، إلّا أنّ هناك منظمات تعمل في الخفاء عبارة عن كمشة من القتلة سفاكي الدماء لا يرحمون أيّ شخص أراد أن يكتشف ما وراء المملكة أو حتى يسأل شيئا غير ما يدور في المملكة.

قلت: لكن لماذا ماراهمش يحلبوكم؟

قال: الأمور هنا أعقد ممّا تتصور، لا تغرّك المظاهر والألوان وسعادة الأشخاص والمباني وجمال المدينة، الكلّ هنا مهدد بالقتل أو بالاختفاء في ظروف غامضة، لكن لحد الآن لا أحد التقى بهؤلاء القتلة، هناك من يقول أنّهم يعيشون بيننا ولكن لا يظهرون، زعيمهم أيضا يعيش بيننا لكن لا نعلم عنه أيّ شيء، ضحاياهم تُطبع في ظهورهم بعد قتلهم كلمة 'مذنب'، كذلك الكلّ يخشى الذهاب إلى الغابة السوداء، لأنّ بعضهم يقول أنّها بوابة الخروج من هذا الجحيم لكنّها خطيرة جدا، الكثير من الأشخاص فقدو حياتهم هناك، أرادوا الهروب لكن لا نعلم إن نجحوا أو ماتوا، هناك أقاويل أيضا أنّ الأرواح الشريرة تسكنها.

درت ناحية رمزي وقلت: قال الغابة السوداء ولا أنا لي نسمع دوبل؟

قال له رمزي: نحن جئنا من الغابة السوداء.

قال: ماذا؟ أتهزأ بي؟

قلت: والله كيما نحكي جينا مع شيخ كبير يقود عربة يحمل في مؤخرتها الحطب، نهض من مكانه وهو يتلهف ويقول:

PROUILLON

- كيف هي؟ كيف هي؟ هل حقا وجدتم الجثث هناك؟ هل حقا هي غابة فائقة الجمال؟ قاطعته قائلا: ريح درك نحكي لصاحبي.

سردت له ما حدث لنا وكيف أنّنا وصلنا إلى هنا وماذا رأينا في الغابة وبُحت له بأمر الملثّمين، وذلك الشخص الذي قتلوه ببرودة أثناء هروبه منهم.

قال: نعم ،نعم ،هم السفلة الذين ينشرون الرعب هنا، ثمّ إنّ ذلك الشخص الذي قتلاه أكيد يسكن في المدينة وأراد الهرب من هنا.

ثم دخل زبونان، نظرا إلينا نظرة ليست عادية، وقف البائع وراح ناحيتهم وقال:

- سأعود، انتظراني.

بعدما خرج الزبونان، عاد إلينا ثمّ قال:

- هل لي أن أتعرف عليكما؟

قلت: أنا أسامة وهذا صاحبي رمزي الرهج.

تذمّر رمزي قائلا: ياك قتلك ماتزيدش تهدرها مع النّاس كامل

ضحكت وقلت: ماعليش أسيدي هذا صديقي رمزي ليزوم.

ضحك البائع وقال: أنا مانو، تشرفت بمعرفتكم، هل تحتاجون لشيء ما؟

قلت: اللّٰه يحفظك شكرا،نريد فقط أن نجد مكانا لنَبيت الليلة، رانا ميتين بالعيا.

قال: يا للهول، هل أنتم أموات؟

أجبته ضاحكا: لا، قصدي هو أنّنا متعبون ونحتاج للراحة.

قال: لديّ غرفة صغيرة في مؤخر المحل، ادخلا واستريحا حتى الغد.

@EL-MOUTHAKAF

قال رمزي: كاش خدمة؟ كاش بريكول؟ نجيبو مصروف.

قال: لم أفهم إلّا كلمة خدمة، أنتما تريدان أن تشتغلا؟

قلت: إيه راك عارف الغربة مُرة وماكاش لي يرفدك.

قال: أوّلا يجب عليكما أن تغيّرا ملابسكما، وثمّ أشار إلى عينيّ وقال: انزع هذه الزجاجات من عينيك كي لا يلاحظوا اختلافكما.

قلت: راك تقصد النظارات؟ لا لا ، يخطوني نولي نشوف فيك سبعطاش.

قال: ههه، يا أخي مجرد فضول أيّ لغة تتحدّث.

قلت: هذه اللهجة الجزائريّة.

قال: استريحا ثمّ أخبِراني عن المملكة التي جئتما منها.

قلت: لا يا خويا، حنا عايشين في دولة اسمها الجزائر.

قال: حسنا ادخلا إلى الغرفة واستريحا.

أعطانا مانو اللباس، ثمّ قال رمزي:

- أنا مانلبسش ڤندورة أعطيني سروال.

قلت: بلّع، السيّد دار فينا مزية ونزيدو نتشرطو؟

ما إن غيّرنا لباسنا ووضعنا رأسينا على الوسادة حتى جاء النوم دون استئذان.

استيقظنا صباحا على صوت مانو:

- انهضا يا أصدقائي، لدينا عمل لنقوم به اليوم.

فتح النافذة المطلّة على الشارع المقابل، استقر ضوء النهار في عينيّ، أجبته بصعوبة والنعاس مكبل عينيّ:

BROUILLON

- يا مانو خويا بلّع الطاقة يرحم والديك، راه مزال الحال، وديجا أنت راك خدام وحنا علاش نوضو.

قال: هيّا هيّا انهضا ودعا الكسل يكمل النوم بدلا عنكما.

قلت: واش نوض ندير؟ نحلب البقرة ولا نغسل الماعن.

ثمّ جاء ونزع عنّي الغطاء.

صرخت قائلا وأنا أعانق نفسي من شدّة البرد: يا ودي هات هنا البرد عندكم شغل راكم عايشين في مورصو تاع جليد.

انفجر ضاحكا وراح ناحية رمزي، كان رمزي يغطّ في نوم عميق، قلت لمانو:

- إيه رمزي لوكان يطيح نيزك قدامو مايفطنش.

أخيرا استيقظت وقلت: أشكرك جدا على مساعدتنا، لن أنسى لك هذا المعروف، وراس صاحبي تجي معايا لقسنطينة تاكل فيها شخشوخة تنسى الخبز تاعك هذا.

ثمّ ذهبت ناحية رمزي وقلت: رمزي نوض، هيّا هداك هو الوقت، السيّد دار فينا مزية كثّر خيرو نروحو نشوفو بلاصة خلاف، قالك لا تكثر على الملوك لا يملّوك.

استيقظ رمزي، رآنا مانو نغيّر ملابسنا استعدادا للرحيل فقال:

- إلى أين أنتما ذاهبان؟

قلت: ذاهبين لنبحث عن مكان آخر.

@EL-MOUTHAKAF

قال: لا، لن تذهبا لأيّ مكان، سوف تعملان معي حتى تعودا إلى مملكتكما.

قلت: منك صح صاحبي؟ أقصد هل تتكلّم بجديّة؟

قال: نعم ولمَ لا؟ لقد تكلّمت مع والدتي بخصوص هذا الأمر، وأنا بالفعل أحتاج لعمّال معي، فمهنة المخبزة صعبة وفيها الكثير من الأعمال، ومنذ وفاة والدي وأنا أعمل وحيدا، وحتى أنّني لا أملك أصدقاءً، لهذا رأيت أنّكما مناسبين خاصة وأنّكما تملكان حسّ الدعابة وهذا الشيء يساعدني في تجارتي ويكسبني المزيد من الزبائن.

نظرت ناحية رمزي قائلا: شفت كيفاش الخدمة جات وحنا راقدين؟ ويما نهار كامل وهي تقول نوض الرزق يجي عند لي ينوض بكري وأنا كنت واثق من النظريّة تاعي. قال رمزي: أنا نخدم يا خويا، شحال لاجورني؟

قلت: يا ودي واشمن لاجورني، أنا غير يخليني نبات هنا ونضمن فطور وعشا سالك. قلت لمانو: رانا قابلين، سوف نعمل معك، ثمّ إنّني أعرف كيف أصنع الكسرة.

قال: كسرة؟ ما هذا الشيء؟

درت ناحية رمزي وقلت: نشوكيوه؟

قال: أنا خاصني قهوة قبل من بعد نحكو في الكسرة.

أخرجت من جيبي دينارا وقلت: هاك جيبلنا زوج قهاوي بيان سيري وزوج ميلفايات، ثمّ عدت لوعيي: يا خاه نسيت اصبر، قلت لمانو:

- خاصنا قهوة، نريد أن نتناول الفطور، أين يمكننا أن نجد كافيتيريا؟

قال: فطوركما جاهز.

BROUILLON

أحضر لنا مانو مائدة صغيرة تحتوي على صحن من الزيتون ورغيف خبز لكلّ واحد منّا وصحن آخر يحتوي على زيت الزيتون وطماطم مقصوصة وبطاطا مشويّة وحبات تفاح لكلّ واحد منّا، وضعها أمامنا وقال:

- شهية طيّبة.

قال رمزي: هذا فطور؟ يا ودي هذا فرخ ما يشبعوش.

قلت بنظرة حادة: أيا كول وبلّع، كي شغل موالف في الدار تفطر بليكخاب، تموت على التبهديل لازم تنطق.

قال مانو: ما به رمزي؟ ألم يعجبه الفطور؟

قلت: لا إنّه سعيد جدا بما قدّمته لنا راك خويا مانو ليزوم.

تناولنا الفطور ثمّ أعطانا مانو ملابس العمل ووزّع علينا المهام؛ بالنسبة لي وضع العجينة أمامي وقال:

- اقصصها قطعا قطعا واعجن كلّ واحدة منها وضعها جانبا.

بينما رمزي كانت وظيفته هي أن يحمل الصناديق التي يضع فيها مانو البضاعة ثمّ يقوم بتنقيّتها جيّدا ويُعيدها مكانها، وبعد نضج الخبز يضعه فيها، مانو مول الصنعة كما نقول في لهجتنا، كنت أراقب تصرفاته، إنّه يحبّ مهنته حتى النخاع، يعمل مبتسما ويلتفت إلينا مبتسما، بالرغم من أنّه صغير السن إلا أنّه يتقن ويتفنن في عمله، أكملت العجين ووضعته كما قال مانو، جاء رمزي ناحيتي وجلس على الكرسي فقلت:

- واش أخويا، أك طالق لاطاي، سيبون كملت؟

قال: قالي مانو ريّح حتى يطيب وتجي تبيع معايا.

@EL-MOUTHAKAF

قلت مازحا: آه سيبون مانو ليوم يعلن الإفلاس، أنت شديت طابلة تاع دخان الشي لي سرقوهولك كثر من لي بعتو.

بدأنا العمل مع مانو، كنّا أنا ورمزي نقضي يومنا في المخبزة وينتهي يومنا بجولة حول المدينة ومعنا مانو الدليل السياحيّ، مازحت رمزي قائلا:

- ليك النّاس كيفاش يشوفو فينا، راني نحس روحي ألماني جا للجزائر.

كانت المدينة تبدو أجمل في فترة المساء، في الليل تصبح عبارة عن لؤلؤة مضيئة، خاصة في تلك الدائرة الكبيرة حيث يجتمع الكثير من النّاس من كلّ صوب صغارا وكبارا، تسمع ضحكاتهم ولعب أطفالهم بالفعل، تحسّ كأنّك في كوكب آخر، التفت إليّ رمزي قائلا:

- أنا والله بديت نوالف وعلابالي نهار لي نجي نولي للبلاد نبكي.

أجبته قائلا: كون تشوف سامعك، أنا صاي ربّيت الكبدة على مانو، لوكان يطلب عينيا نسلفهملو.

بقي مانو ينظر إلينا في استغراب ونحن نتحدّث ثمّ أجابني بابتسامة مشرقة قائلا:

- أنا أريد أن أتعلّم لغتكما فأنتما الآن صديقاي المقرّبان، بل أنتما أخواي، عندما أتحدّث عنكما أمام والدتي وأحكي لها عن المواقف التي تحدث

BROUILLON

بينكما أنت ورمزي تضحك حتى تسقط دموعها، أجبته قائلا: يجيبها التلباس خويا، أجابني: ماذا قلت؟، ثمّ وضعت يدي على كتفه.

قلت: ستتعلّم بالتدريج، أوّل درس لهذا اليوم قل "واش راك".

قالها ثمّ أجبته أن هذه تعني كيف حالك، ابتسم وقال:

- هيّا بنا لنعد أدراجنا، يجب أن نرتاح، هذا اليوم أتى الكثير من الزبائن، أصبح العمل شاقا أكثر من الأيّام الأخرى، أشرت ناحية رمزي وقلت:

- هيه راني حاير في رمزي منين طاحت عليه هاذ الشطارة، عندما كان في عالمنا بولون مايعرفش يسيريه.

أجابني رمزي قائلا: والله يا أنت، تشفى نهار بعثك عمي محمد تخلّص التريسيتي ورحت للسياكو؟

ضحكنا وعدنا أدراجنا نمشي بتأنٍ ونتحدّث ونمازح بعضنا البعض ومانو يستمع إلينا، مرّ أمامنا الزبونان اللذان رأيناهما يومها، سألنا مانو عن المملكة وأربكتني نظرتهما إلينا، هذه المرة أطالا النظر إلينا خصوصا أنا لكنّني سرعان ما نسيت أمرهما.

ثم قلت لرمزي: اسمع شفت هادو لي فاتو درك؟

قال: إيه واش بيهم؟

قلت: يا خويا توسوست منهم، هادي ثاني مرة وهوما يشوفوا فينا بطريقة ماش نورمال.

قال: لا، ياودي حنا باينين ماش من هنا.

قلت: يا خويا يا خويا، تقول ما راك جزائري ،ماتعرفش تفرق بين نظرة نورمال ونظرة ماش نورمال.

@EL-MOUTHAKAF

مانو يراقب بصمت وقال: ما بكما يا مشاكسين؟ هل تعانيان من مشكلة ما؟

قلت: لا شيء، صاحبي راني نسقسي فيه إيلا غدوة هو يعجن في بلاصتي وأنا نبيع معاك، حاب نداسر الزبائن.

قال: حسنا !!

يوم جديد ونشاط جديد، أصبحت بضاعة مانو مطلوبة من أصحاب المطاعم، كان يجب علينا أن نصنع كميات كبيرة من الخبز، اشترى مانو عربة صغيرة لنقل البضائع وكلّف رمزي بتوزيعها على المحلات، كنت جالسا في المحل أرتّب رفوف الخبز ريثما ينضج، كان في كلّ مرة يأتي زبون يسأل متى يكون الخبز جاهزا ومانو في الخلف منهمك مع الفرن وصنع الخبز.

دخلت فتاة حسناء ذات شعر ذهبيّ وعينين زرقاوتين، أنف رقيق ووجه دائريّ، بيضاء البشرة تلبس فستانا مرصّعا لونه أزرق سماويّ.

كنت أنا منهمكا في وضع الخبز في مكانه، دخلت وقالت مرحبا، استدرت ناحيتها، أصابتني الدهشة وقلت:

- مساء الخير، آه عذرا صباح الخير ختي.

قالت: صباح النور.

قلت: كاشما تحتاجي؟ الخبز راه جديد، شحال نعطيك؟

BROUILLON

قالت: هل مانو هنا؟

قلت: نعم تحتاجيه؟

قالت: نعم، نادِه من فضلك.

ذهبت إليه وقلت: اسمع، يا ودي واحد الفتاة راها تحوس عليك، مخي ديكلونشا كيما شفتها، ماحلبتنيش بلي تعرف الحسناوات.

ضحك وقال: أنا قادم.

عدت للمحل وقلت: راه جاي أمادموزال.

صمتت برهة وقالت: أنت أسامة؟

- يا عيني على أسامة وتعرفي اسمي، نعم أنا أسامة واش راكي صافا؟ والله لباس شوية البرد، آه السخانة عطشت جيبولي ناكل.

نظرت إليّ باستغراب وضحكت لطريقة ارتباكي، ثمّ قلت:

- تريحي؟ هاو ليك كرسي، أقصد اجلسي ريثما يأتي مانو.

خرج مانو مبتسما وقال:

- إيناس؟ كيف حالك؟ ما الذي أتى بك إلى هنا؟

قلت في نفسي: مانو ليوم تتخلط تهدرلي مع فتاة أحلامي.

تحدّثا قليلا ثمّ انصرفت، وقفت قائلا:

- اسمع شكون هادي؟ وين تعرفها؟ وشكون قالك أحكي معاها؟

قال مبتسما: هذه خطيبتي.

قلت: آه ربّي يكمل صاحبي، يا خويا راك تعرف تصيد، زين وتربية وباين فيها لباس بيها.

@EL MOUTHAKAF

قال: ماذا تقصد؟

أجبته قائلا: أقصد جميلة جدا، وذات أخلاق، كيف وجدتها؟ أكاد أجزم أنّك تصادفت بها في المحل وأعجبت بها، وذهبت إلى والدها.

ضحك مانو وقال: لا، إيناس هي صديقة الطفولة، ترعرعنا مع بعض فأحببتها وأحبّتني لكن...

قلت: لكن واش؟ كمّل.

ثمّ قال: والدها صاحب نفوذ ومال ولحد الساعة لا يريدها أن تكون من نصيبي.

قلت: اصبر، ياك قلت لي بأنّها خطيبتك.

أطرق بنظره إلى الأرض وقال: يا ريت لو كانت خطيبتي، والدها لا يريد أن يزوّجها من تاجر فقير.

قلت: لا فقير لا والو، واش حاسب روحو شاد علينا السّماء؟ سوف نذهب إلى والدها مساءً ونتحدّث في هذا الأمر، وسوف يقبل بلا جدو، حتى أنت وليد فاميليا وبوڤوص.

ضحك مانو وقال: لقد حاولت معه مرارا وتكرارا لكنّه لم يقبل، لكن سأذهب معك مساءً.

دخل رمزي بوجه مشرق وقال: أسامة صاحبك هارب في راسو.

قلت: علاش غير الخير؟

رمى عليّ كيسا من النقود وقال "هاي ليك ٢٥٠ دينار في زوج دقايق".

قلت: منين جبتها؟ اسمع لكان كاشما درت غير قلي من درك نوجد روحي للحبس خاطر مانيش حاب نباصي وأنا ماعلابالیش بالتهمة.

PROUILLON

قال: ماكان والو، ماتحوسش تفهم المهم ليوم نتقلشو.

قلت: هاني قتلك كاشما دير نطرطقلك الرقبة تاعك.

سأل مانو رمزي: هل وزّعت كلّ البضاعة؟

قال: إيه، زبون آخر سيأتي فيما بعد ليتكلّم معك بخصوص الطحين، قال أنّه يملك كمية كبيرة ويريد بيعها بسعر مناسب.

قال مانو: حسنا

كان العمل يتقدّم بشكل جيّد، أصبح الزبائن يعرفون أسامة ورمزي أكثر من مانو، كانوا يسألوننا كثيرا من أين أنتم؟ أين موطنكم؟ والإجابة واضحة: "جئنا من المريخ".

في المساء كنّا بصدد غلق المحل، جاء شخص يجري نحونا، ما إن وصل حتى أشار بإصبعه لرمزي وقال لي:

- هذا الشخص باع لي هذا البرص (زرزومية) وقال لي أنّها ديناصور، حيوان منقرض وأنّها سوف تنمو حتى يصبح طولها أقرب إلى سقف بيتي، لقد دفعت له ٢٥٠ دينار.

درت ناحية رمزي وقلت:

- يعني والله مليحة العبد يدخل فيك بدماغ نفاصيلك الذاكرة، ردّ رمزي للشخص قائلا:

- لست أنا من باعك هذا البرص، كاين أربعين شخص يشبهولي.

درت ناحية رمزي وقلت:

- هيّا رجّع حق السيد وبركا بلا سكروكاج، حنا عايشين في الريسك ونتا ديرلنا في المشاكل.

@EL MOUTHAKAF

أعدت المال لصاحبه، وقلت لرمزي:

- اسمع غير ريّح غبيّ ، خاطر الذكاء ما يصلحلكش، ثمّ جلت ببصري في الجهة المقابلة للطريق، رأيت شخصا نظر إليّ ثمّ تحرّك.

رمقني ذلك الشخص بنظرة زادتني ارتباكا، أحسست أنّنا مراقبون، بدأ ناقوس الشكّ يدقّ في عقلي، لاحظ رمزي ارتباكي وقال:

- واشبيك أوس؟

قلت: والو والو.

لم أقل لرمزي لأنّه لن يعطي للأمر أهمية، ثمّ قلت:

- ماعليش هيّا نبلعو المحل ليوما ما نسهروش.

قال: علاه؟

قلت: هكا مانسهروش.

ذهبنا إلى سوق الخضروات واشترينا ما سنطبخه لتلك الليلة ثمّ عدنا إلى المحل، أغلقت الباب بإحكام، وظللت أراقب الشارع بتركيز شديد، وقف أمامي رمزي وقال:

- واشبيك أخويا؟ واش كاين فهمني؟ لكان على داك السيّد سيبون ياك رجعنالو دراهمو، ونوعدك ما راح نزيد ندير حتى مشكلة.

قلت: لا مانيش على داك السيّد، ياو فيق أبريق رانا معسوسين، الحالة ماتبشّرش بالخير دير بالك مليح.

طَهَوْنا وجبة العشاء ثمّ جلسنا سويًّا نتناول الطعام، لم أنطق حتى بكلمة، ظللت فقط أنظر في زاوية من الغرفة ورأسي يشتعل تفكيرا، قاطع شرودي رمزي وقال:

PROUILLON

- مانو ماجاش ليوم.

قلت: إيه قالي بلي الوالدة تاعو مريضة راح يريح معاها.

أجابني رمزي قائلا: وكيفاش ما نطلوش عليها؟

أجبته غاضبا: ما كانش، أني نقلك رانا معسوسين وراني حاس بلي راح ندخلو في مشكلة كبيرة.

صمت رمزي وقال: ماعليش المهم نديرو حسابنا ولي جي من عند ربّي مرحبا بيها.

سقطت في فراشي متعبا، وضعت النقود التي كانت في جيبي فوق الكرسي ثمّ لاحظت النقوش الموجودة في العملة، نهضت من مكاني مخطوفا، قال لي رمزي:

- واشبيك أأطفل من الصباح ونتا تنكز تاع روحك؟

قلت: أرواح أرواح شوف، راني شايفها العملة هادي من قبل.

قال رمزي: وضّح أكثر، وين شفتها؟

قلت: أمم واقيل شبهتها،لا لا هادي العملة تاع نوميديا.

قال رمزي: آه منك صح؟ واش جاب نوميديا للملكة السوداء.

قلت لرمزي: ارقد ارقد، راني بديت نخلط أنا.

ما إن نام رمزي حتى أحضرت ورقة وقلما ووضعت العملة تحت الورقة وأخذت ألوّن تلك العملة حتى ظهرت النقوش، تفاجأت أنّها عملة نوميديا، لكن كيف؟ وهذه المملكة تسمّى بالسوداء. ثمّ بدأت أحلّل الوقائع والأحداث والأشياء التي أخبرني عنها مانو بخصوص المملكة، وقلت في قرارة نفسي:

@ELMOUTHAKAF

- مملكة دون حاكم ولا محكوم، كلّ واحد هنا يعتبر جزءًا من الدولة، إيه وهادو السفاحين لي راهم يخطفوا في النّاس وما يخلوا حتى واحد يبحث في أمور سياسيّة، الحكاية فيها اللوش سَكتّ برهة ثم صاح لساني قائلا:

- هذه المملكة هي نوميديا وهذه المدينة هي عاصمتها سيرتا، إذا هل المملكة تقبَع تحت احتلال من طرف جيش ما؟ لا ماشكيتش، لوكان جات محتلّة لوكان راه كاين جيش يقمع الشعب، لازملي نبحث في الأمر بشكل جديّ، ثمّ استسلمت للنوم.

في صباح اليوم التالي استيقظت مشوّش الأفكار، أريد أن أعرف من يراقبنا، وماذا يريدون منّا، وهل هذه المدينة بالفعل هي سيرتا عاصمة نوميديا، كان عليّ ألّا أخبر أيّ أحد بما اكتشفته، ولا شكّ أنّني على حق لأنّ عملتهم هي بالفعل عملة نوميديا القديمة فأنا من عشّاق اكتشاف الحضارات القديمة، تعرّفت على عملة نوميديا من دروس التاريخ التي كنّا ندرسها في مرحلة الإكماليّة، بقيَّت في ذاكرتي ليومنا هذا، لا بل رأيتها مرات ومرات لأنّني كنت أذهب أحيانا إلى متحف سيرتا بقسنطينة، فأنا شخص إذا اشتعل الفضول في عقلي لن ينطفئ حتى أعرف الحقيقة، فإذا كانت بالفعل هذه المملكة هي نوميديا فأيّ عصر يعيشون فيه؟ قلت لرمزي:

- اسمع ليوم أنا في بلاصتك نسربي الخبز للمطاعم.

قال: علاش؟ بصح راني والفت والزبائن عادوا يعرفوني.

BROUILLON

قلت: يا ودي ريح برك، ماطيحليش بيزنس مان.

قال رمزي: روح يا الفيلسوف نشوفو شطارتك.

وضعت طلبيّات الزبائن في العربة ورحت رويدا رويدا، لم أعد أتمشّى كما كنت من قبل، الآن أصبحت أراقب كلّ شيء وأدقّق في كلّ شيء، فالزبونان اللذان رمقانا بنظرتهما أصبحا يثيران الشكّ والريبة في عقلي، بل إنّني أصبحت أنتظر تلك اللحظة التي ربّما سوف أُختطف فيها، لم أكن أريد أن أقوم بعمل رمزي اليوم لكي أتجول بل لأنّني أريد أن أتصادف بالشخص الذي نظر إليّ البارحة، أكيد هو يعرفني، ثمّ إنّه ركّز نظره عليّ أنا بالتحديد، هذا يبيّن أنّه يريد منّي شيئا ما، أو أنّه رآني في مكان ما وأراد التأكّد من أنّني الشخص المطلوب.

بدأت أوزّع طلبيات الزبائن ، بعدما انهَيت العمل تركت العربة عند أحد الزبائن وذهبت أتمشى بين أزقة المدينة علّني أتصادف بهذا الشخص، بحثت في كلّ شبر وفي كلّ شارع لكن لم ألمح هذا الشخص، انتهى بي المطاف جالسا على أحد الكراسي في منتصف المدينة، كانت المدينة ممتلئة عن آخرها، الكثير من النّاس يتجولون، بعضهم يعمل وبعضهم خرج ليتنزه.

لمحت شخصا جالس أمام النافورة، وخنجر مخبّأ تحت قميصه ويبدو عليه التوتر ويجول بنظره من شخص لآخر، كان ذو بنيّة قويّة وذو حاجبين كثيفين وعينين خضراوتين ولحية خفيفة، دقّقت في ملامحه وقلت:

@EL-MOUTHAKAF

- هذا هو لي شاف معايا البارح، بصح كي شغل شايفو بصح وين ما علابا ليش.

توقّفت برهة، ثمّ عادت بي الذاكرة للوراء،إنه يوبا ، يا خويا واش راه يدير هنا، ذهبت ناحيته، وقلت:

- واش يوبا صافا؟

دار ناحيتي وقال:

- ماذا؟ يوبا؟ لا أنت مخطئ يا صديقي.

قلت: يا ودي أنت يوبا، تعرّفت عليك من عينيك وحاجبيك، والآن عندما تكلّمت تيقّنت بالفعل من أنّك أنت.

وقف من حافة النافورة ومشى ثمّ أردفت:

- هذه المملكة هي نوميديا وليست المملكة السوداء.

تسمّر في مكانه برهة وعاد إليّ وقال:

- ماذا قلت؟

قلت: راني نقلك هادي المملكة هي نوميديا.

ثمّ أمسكني من ذراعي وجذبني إليه وقال:

- أخفض صوتك، من أين لك بهذه المعلومة؟ من قال لك؟ لا أحد يعلم هذا الاسم.

نزعت ذراعي من يده وقلت:

- عملتكم هي من أوضحت لي الأمور، ثمّ إنّني أتيت من زمان غير زمانكم ودرست على هذه العملة كثيرا ولا زالت لحد الآن موضوعة في متاحفنا.

صمت برهة وقال:

BROUILLON

- عد أيّها الغريب من حيث أتيت ولا تحشر أنفك في أشياء أكبر منك.

قلت: يا ودي حبيت نفهم برك لماذا تكذبون على الناس بشأن المملكة وتقتلون كلّ من يسعى للوصول إلى الحقيقة، أليس الأجدر بكم أن تبنوا دولة قويّة قادرة على مجابهة الدول العظمى؟ في زماننا الدولة النوميديّة كما درسنا عليها في مادة التاريخ كانت دولة قويّة جدا وغنيّة بثرواتها وأراضيها كبيرة جدا، لكن كما ألاحظ الآن فهي مجرد مدينة ثم أردفت: وتسموها السوداء تاني يا حليل، كما قال بومدين الله يرحمو عندكم أزمة رجال.

صمت يوبا لحظة ثمّ اغرورقت عيناه دموعا وقال:

- أنا لا أعمل معهم، أنا عدوّ لهم لكن في الخفاء، حتى أنا أعلم بأنّ وطننا اسمه نوميديا وهذه المدينة هي سيرتا عاصمتها لكن لا أجد من يساعدني في هذه الحرب.

قلت: لكن لا أفهم ما يدور هنا، من المتحكّم؟ ألم تَقُل أنّه لا يوجد لا حاكم ولا محكوم؟ وأنّ شعب سيرتا هو جزء من الدولة، أي لا أحد يستطيع أن يفرض عليه شيئا، لكن في المقابل كلّ يوم يختطف شخص ويُقتل آخر؟ هل لك أن تشرح لي أكثر؟ لأنّني في اليوم الذي التقيتك فيه أنا وصديقي وقلت لي أنّك تعمل في منظمة سريّة وكذا وكذا... لم أصدّق كلامك.

يوبا قائلا: انضممت لهذه العصابة ليس لكي أعمل معهم بل لكي أعمل ضدهم، ويسهل عليّ قتل هؤلاء الحشرات عندما تسنح لي الفرصة، اخترت العمل في الغابة السوداء لأنّها كبيرة ومن السهل جدا أن أقتل بعضهم ولن يشكّوا بي لأنّه دائما ما يكون هناك أشخاص يحاولون الهرب

@EL-MOUTHAKAF

من هنا ويستطعون الإطاحة ببعضهم، صديقي هذه المدينة مختطفة، هل تعلم ما معنى مختطفة؟ هناك شخص واحد يتحكّم فيها ولديه حاشيته وعصابته الذين يمنعون أيّ شخص من الهروب إلى ولاية أخرى ليبوح بما كان يعيشه هنا، لأنّ الولايات الأخرى مطبّق عليها نفس القانون ومتحكّم فيها من طرف أشخاص آخرين، لكن كلّهم لديهم هدف واحده، وهُم عصابة مغتصبة للأراضي ولثروات هذا الوطن الغالي، كلّهم مرتزقة وقتلة، قاموا أوّلا بقتل الملك الذي كان يقود المملكة منذ زمن طويل، ثمّ قاموا بقتل كلّ الأشخاص الذين حاولوا نشر خبر مقتل الملك وأنّ المملكة أصبحت تحت راية عصابة، قاموا بإغلاق كلّ الحدود التي تفصل بين ولايتنا والولايات أخرى، هل تعلم بأنّ سكان الولاية الأخرى لا يعلمون أنّ هناك مدينة تسمى بالمملكة السوداء؟ حتى هم يظنون أنّهم وحدهم من يسكنون في هذه الأرض.

قلت: علابيها منتشرين في الغابة السوداء ويقتلوا فالناس، يعني دوك الناس كانوا يحاولون الهرب وخافوا أن يصلوا إلى الولاية الأخرى ويخبروا السكان بما يحدث في وطنهم، أو يخافون انقلاب الشعب عليهم، لهذا لجأووا إلى القتل في سريّة، لقد قاموا بتخدير الشعب النوميديّ.

قال يوبا: بالضبط، هذا ما يفعلوه، أنا من نظرت إليك البارحة، بل في مرات عديدة.

قلت: لا، ليس أنت فقط من نظر إليّ، هناك شخصان، كانا يراقباننا طوال الوقت.

تبسم وقال: لا تقلق، إنّهما صديقاي، يسعيان لنفس هدفي.

BROUILLON

قلت: لكن لماذا يراقبانني؟ قال: هما لا يراقبانك، هما يحرسانك من رجال العصابة.

قلت: لكن لماذا؟

قال: لأنّ شخصا من العصابة رآكما تخرجان من الغابة السوداء وأخبر زعيم الفرقة المكلّفة بحراسة الغابة، وهو بدوره أرسل خبرا إلى حراس المملكة لكي يبحثوا عنكما ولحسن حظكما أنّه لم يرَ وجهيكما، ولكن هذا لا يعني أنّكما في أمان، على كلّ حال احترسا، ثمّ مازحني قائلا: خبز مانو تحسّن بفضلكما، سألتقي بك مجددا وسآتي إليك متنكرا كي لا يعرف أيّ أحد حقيقتي.

ثمّ قلت: حسنا، يجب عليّ العودة للمحل الآن، أراك قريبا..

عدت أدراجي إلى المحل في المساء، كان يوما حافلا، رجعت متعبا جدا وبطني دخلت في ظهري من شدة الجوع، رأيت رمزي واقفا خارج المحل ويجول ببصره من مكان إلى آخر، أظنّه يبحث عنّي، ما إن وصلت حتى اشتعلت عيناه فرحا ثمّ في لحظة تحوّلت إلى غضب وقال:

- وين كنت يا الهم؟ من الصباح وحنا نحوسو على جدك، كي شفت روحك رايح طوّل كون خبرتنا على الأقل نقعدو مرتاحين.

أجبته قائلا: كملت الخدمة ورحت درت شوية، عجبني الجوّ اليوم وزدت لقيت جروب مدايرين مسرحيّة في الجنان لي قدام النافورة ريحت نتفرج، ثمّ أردفت: وين راهو مانو؟

أجابني رمزي: راح يحوّس عليك يا مكلوب.

@EL-MOUTHAKAF

أجبته: يا خويا يا خويا تقول عايشين في الماريكان، مدينة فيها فيراج وربع رايح نهمل، خلينا من الدراما يعيشك، اسمع كاشما كاين فطور؟ رايح نطيح بالجوع.

قال: راني خليتلك سوندويتش فوق الطابلة.

دخل مانو وقال لرمزي: هل رجع أسامة؟

قال: إيه، إنّه في الغرفة.

جاء مانو وقال: أين كنت يا صديقي؟ لقد قلقنا عليك خاصة وأنّك قلت أنّه هناك من يتعقبك

قلت: ماكان والو صاحبي ماتتقلقش، كاين حاجة لازم تعرفها.

قال: خير إن شاء الله؟

قلت: يا مانو اكتشفت حاجة تخص وطنكم.

قال: ما هي؟

قلت: بلادكم اسمها نوميديا وهذه المدينة هي سيرتا عاصمتها.

قال: ماذا؟ كيف عرفت ذلك؟

قلت: ريّح نحكيلك، نوميديا هي مملكة أمازيغيّة قديمة وعاصمتها هي سيرتا لي هي المملكة السوداء كما تلقبونها، من قبل ما يسمونها المملكة السوداء كانوا عايشين فيها قبيلتين كبيرتين، وحدة اسمها المازيليون والأخرى اسمها الماسايسليون، ولقد مرّ العديد من الملوك في نوميديا لكن لا أدري إن عاصرتموهم أم ماتوا قبلكم أم بعدكم لأنّي لا أدري أيّ عصر أنتم تعيشون فيه، على كلّ حال تاريخكم مدفون وقاموا بطمس هويتكم، أنتم أمازيغ يا خويا.

BROUILLON

صمت برهة وقال: كيف عرفت ذلك؟ من أخبرك؟

قلت: عملتكم هي التي أخبرتني، ثمّ التقيت بشخص هو من أكّد لي ذلك.

أجابني بسؤال: من هذا الشخص؟

قلت: يوبا الذي حدّثتك عنه من قبل، الذي التقيناه أنا ورمزي في الغابة.

قال: لكن إن كان فردا من العصابة، كيف له أن يعطيك سرا كهذا؟ من يؤكّد لك بأنّه قال لك الحقيقة.

قلت: الحقيقة أنا من بحثت عنها، لقد استعملته فقط كطعم لمعرفة حقيقتها، إنّه عدوّ لهذه العصابة، لقد انظمّ إليها لمحاربتهم، ولو أراد بنا سوءًا لقام بقتلنا في الغابة.

دخل رمزي وقال: واش شكسبير؟ واش راك تخلط على السيد؟

قلت: تشفى كيما قتلك بلي هادي المدينة هي سيرتا؟

قال: إيه، شكون قالك؟

قلت: يوبا.

قال: يا خاه وين تلاقيت الجزار هداك؟

قلت: يا ودي حكاية طويلة، من قبيل وأنا نحكي لمانو علاش مارميتش وذنك؟ المهم لي كانوا يراقبونا راهم صحاب يوبا.

قال رمزي: بصح علاش يراقبونا؟

قلت: راهم يعسو علينا يا خويا، خاطر راهم يحوسو علينا العصابة.

تجمّد رمزي في مكانه وقال بنبرة مرتبكة: يا خويا مانيش حاب نعيش الموقف لي عاشو داك السيّد في الغابة، قتلوه بدم بارد.

@EL-MOUTHAKAF

أجبته مبتسما: لا ماتتقلقش ما شافوش وجوهنا، لي شافنا ظهر عور، شافنا غير من ظهورنا وحنا خارجين من الغابة، مي دير حسابك بلي حنا باينين غرباء سما كلّ الشكوك تجي فينا حنا.

جلس مانو يفكّر ونطق قائلا: لكن كيف لشعب نوميديا أن يحارب عدوّا مخفيا كأنّهم أشباح؟ في المقابل إلى متى سنعيش هكذا؟

قلت: يا خويا الله يسهل، ياكلوا بعضهم، المهم أنا خبرتك، لكن لا تخبر أيّ أحد وإلّا سوف يصنعون من جثتي مغارف وفراشط.

أغلقنا المحل مساءً، كنت متعبا للغاية.

قال لي رمزي: ما تسهرش ليوم تاني؟

قلت: لا راني عيان يا خويا حاب نرقد.

ألحّ عليّ مانو لكي أخرج معهما لكن فضّلت أن أنام.

بعد ما خرجا من المحل وضعت رأسي على الوسادة، ما إن زارني النوم حتى سمعت دقّات خفيفة على نافذة الغرفة، وقفت بهلع، أمسكت بيدي سكينا ورحت أتقدّم ببطء ناحيتها، رأيت شخصا يرتدي عباءة سوداءً وملثّم الموجه، وضع يديه على الزجاج وأخذ ينظر إليّ، من شدّة الخوف تكلّم لساني قائلا:

- اسمع، شكون أنت؟ واش تحتاج؟ غير ما تخلطش فيا راني ندير الكاراطي.

قال: أسامة أنا يوبا.

فتحت النافذة وقلت: الله لا يتربحك، الدم حبس في جسمي، يا خويا ماظنيتش لكان تجيني كيما هكا، في بالي كاش جن جا يشري الخبز.

BROUILLON

تبسم وقال: هل أفزعتك؟

قلت: يا ودي ماش تخلعت، هبطلي السكر.

قال: هل لي أن أدخل؟ هناك ما أريد أن أتحدّث معك بخصوصه.

قلت إيه أتفضل.

دخل يوبا إلى الغرفة وأخذ يحدّق في أرجائها وقال: غرفة جميلة.

جلس في الكرسي وقال: أحتاج مساعدتك يا صديقي.

قلت: أساعدك في ماذا؟ عندك عرس تحتاج كمية كبيرة من الخبز؟

ضحك وقال: لا، لا، أريد منك أن تساعدني أنا ومجموعتي في قضية وطننا.

قلت: أواه أخويا كولوا بعضكم ما عندي ما دخلني.

قال: لم أفهمك.

قلت: لا يا أخي، لا تدخلني في أمور لا أستطيع مواجهتها، أنت قويّ البنية وتعرف تضارب، تسلك راسك، أنا لا أستطيع الدفاع عن نفسي، ثمّ أنّني أريد العودة إلى وطني يجب عليّ أن أبحث عن الجبل أو البوابة التي أحضرتني إلى هنا.

صمت برهة وقال: حسنا أيّها الذكيّ، قل لي كيف تريد أن تعود إلى وطنك والغابة السوداء أصبحت تحتوي على عدد مضاعف من حراس الحدود، لن تستطيع أبدا الولوج إليها مجددا إلّا إذا تمّت السيطرة على المدينة.

قلت: كم عدد أفراد العصابة؟

قال: حوالي ثلاثة آلاف.

قلت: كم عدد أفراد مجموعتك.

@EL MOUTHAKAF

قال: ليس كثيرا.

قلت: ياو شحال قلي؟

قال: ١٥٠ فردا.

ضحكت وقلت: والله يا يوبا خويا غير أنت نية، مائة وخمسون شخصا ضد ثلاثة آلاف؟ الأفلام تاع الهنودة لي معروفين بالخرطي وماخمموش يديروها، لازمك فيكتيف يا خويا.

قال: ماذا؟

قلت: أقصد تحتاج إلى الكثير من الأتباع سينو لن تستطيع أبدا محاربتهم.

قال: أعلم أنّنا نحتاج إلى الكثير من النّاس والكثير من المحاربين، أرجو منك مساعدتي، أنا أضع كلّ آمالي في يدك، ثمّ أنّك أعلم منّا بتاريخ مملكتنا وحتما تملك حلولا ذكيّة وسريعة في جمع النّاس.

سكت لساني برهة ثم قلت: ماعليش خليني نخبرك ومن بعد نفكر، بوه خليني نخمم وسوف أخبرك.

تبسم وقال: حسنا ليلتك سعيدة سألتقي بك مجددا وقل لي هل ستوافق أم لا.

قلت: إن شاء الله، لكن يا خويا المرة الجاية لا تدقدق على النافذة مانيش ناقص خلعة، ديجا راني بالمصران قتلني وزدتني نتا.

تبسم وانطلق يجري بخفة، أما أنا فجلست في سريري ونطق لساني قائلا بأغنية جليل باليرمو: واش داني نرمي روحي هكذا واش داني... ثمّ استسلمت للنوم.

PROJILON

في صباح اليوم التالي استيقضت كالعادة، تناولت فطوري أنا ورمزي، كان مانو لا يزال في البيت، بدأنا بإعداد العجين الخاص بالخبز، ذهب رمزي ليُشعل الفرن بينما أنا أكملت كلّ الطلبيات ولم يبقى إلّا الطهي، أشار لي رمزي لكي نبدأ بطهي الخبز ثمّ تكلّم لساني قائلا:

- علابالك لبارح شكون جاني في الليل؟

قال: شكون؟

قلت: يوبا.

قال: علاه جا الهم هذا واش يحتاج؟

قلت: قالي عاوني باش نوعي الناس ويعرفوا حقيقة نوميديا.

قال: إيه وأنت واش قلت؟

قلت: نخمم ونرد عليه.

صمت رمزي وتمتم بين شفتيه وقال: واش لي تخمم ماعندو ما دانا للمشاكل، هدا أمر يخصهم هوما، حنا شي يامات ونبداو نحوسو كيفاش نرجعو للبلاد.

قلت: البروبلام ما كاش كيفاش نقدرو ندخلو للغابة السوداء، سيبون بلعوها، قالي يوبا كثّر فيها الحراسة كثر من لي كانت ،صافي الحل الوحيد باش نقدرو نرجعو ليها هي لازم العصابة لي حاكمين المدينة لازم يطيحوا، ويوبا عندو جماعة ضعيفة ما يقدروش يقاتلوهم خاطر الآخرين في بزاف.

قال رمزي بنبرة تسودها الحيرة: صافي راح تخلاص علينا هنا ولا كيفاش.

قلت: في كلّ الحالات راح تخلاص علينا مال، لوكان نريحو هنا يلقاونا

@EL MOUTHAKAF

ولوكان نروحو للغابة وحدنا راك علابالك كيفاش تصرالنا، في رايي نعاونوهم وخلاص ماعندناش حل، أنا تقريبا راني حاط روحي في عداد الموتى.

ما إن أراد رمزي أن يتكلّم حتى دخل مانو، أشرت لرمزي لكي يصمت.

دخل مانو ووجهه يوحي بأنّه حزين قال:

- صباح الخير.

ثمّ ذهب ناحية الغرفة التي نصنع فيها الخبز، أدرت رأسي إلى رمزي وقلت:

- الله يجعل الخير واش بيه مانو؟ كاشما صار لبارح كيما سهرتو؟

قال: تلاقا بإيناس حكاو من بعد جاني زعفان ماحبش يحلبني واش صرا بيناتهم.

دخلت إلى مانو وقلت: واش يا خويا جايز علينا رولو ما ناش نبانو ولا؟

قال: لا شيء صديقي. وتبسم ابتسامة مصطنعة

عرفت أنّه يخفي شيئا ما وقلت: مانو واشبيك صاحبي؟ نوميديا ندنيها علاجالك.

قال: إيناس سيزوّجها والداها قريبا، تحدّثت معها البارحة.

قلت: إيه ومبعد، تلافها يجيب خلافها، لوكان حباتك صح كانت تصبر معاك.

قال: المشكلة ليست فيها، بل في والدها يريد تزوجيها رغما عنها.

قلت: عادي صاحبي المملكة معمرة نساء.

BROUILLON

قال: لكن يا صديقي أنا أحبّها وهي تحبّني، ولو رأيت أنّها لا تريدني لما أحزنني الأمر.

قلت: يا خويا خذني إلى والدها سوف أتحدّث معه أنا ورمزي ربّما سيقتنع بالأمر. رفض مانو في بادئ الأمر لكن بعد إلحاحي أنا ورمزي، قال:

- حسنا، سنذهب في المساء بعد العمل.

أكملنا يومنا كباقي الأيّام، عمل وتعب وملل، أغلقنا المحل وقلت لمانو:

- هيّا لنذهب لوالد إيناس لي حاسب روحو حاجة علينا.

انطلقنا ثلاثتنا إلى بيت إيناس؛ كان بيتا كبيرا ذو خمس طوابق يتوسط حديقة خضراء مزيّنة بأزهار ذات ألوان زاهية، وجدنا شخصين يقفان أمام الباب، ضخمي الجثة ويتحدّثان بنبرة حادة ويحملان في خصرهما سيوفا.

التفت إلى مانو وقلت: من فيهم والد إيناس؟

ضحك وقال: هاذان حَرَسُه ويوجد الكثير منهم في الداخل.

ارتبكت وقلت: الحالة صعيبة يا جدك.

وقف مانو أمامهما وقال: من فضلكما أريد التحدث مع عمي إيدير.

قال أحدهما: إنّه مشغول عد لاحقا.

استشاط رمزي غضبا وقال: واش أبن عمي رئيس الجمهورية هدا، قل لجدو يخرج يحكي معانا دقيقة.

قال الحارس: هيّا انصرفو وإلّا...

قلت وإلّا ماذا؟

ثمّ نطق مانو: لا بأس، لا بأس سنعود لاحقا.

@EL-MOUTHAKAF

وأخذ يسحبنا إلى الخارج ثمّ فُتِح الباب، كانت إيناس من فتحت الباب وقالت:

- مانو، أسامة، رمزي ماذا تفعلون هنا؟

قلت: جينا نهدرو مع الرهج تاع باباك بخصوصك أنت ومانو.

قالت بنبرة حزينة: والدي سيزوّجني من ابن تاجر ثريّ في المدينة، لقد تحدّثنا البارحة أنا ومانو في هذا الأمر.

مانو لم يقوَ حتى على النظر في وجهها وقال:

- هيّا لنعد أدراجنا، لا أريد أن أتحدّث مجددا في هذا الأمر، إيناس أتمنّى لك حياة سعيدة، أنا تاجر فقير ولا يمكنني إسعادك، لا أنكر أبدا أنّني عشت معك أفضل لحظات عمري، فقد كنت سندي الأوّل بعد وفاة والدي وكنت أنت من أعاد لي الحياة في كثير من المواقف، فلتعلمي بأنّني أحببتك بجنون وما كان قلبي يحمل غيرك، حاولت أن أفعل المستحيل لكي يرضى والدك بي، لكن ما باليد حيلة، إنّه ثريّ ومن حقه أن يزوج ابنته الجميلة إلى رجل ثريّ في مقامه، أعلم بأنّ هذا الأمر خارج عن نطاقك لكن حاولي أن تنسي مانو.

قالت والدموع تنهمر بغزارة: ماذا؟ هل تريد منّي أن أنساك؟ لا أريد أن أعيش مع غيرك يا مانو، ألا تفهم؟ لا أستطيع أن أتقبّل أيّ شخص إلّا أنت، لقد سكنت روحي وسكنت قلبي وكلّ شيء في نفسي.

كنت أنا ورمزي نشاهد ونستشعر كمية الألم التي يعاني منها كلاهما، بالفعل صدق من قال بأنّ الحبّ أعمى، بالفعل صعب أن تقبل خروج شخص من حياتك إلى الأبد، لا يختلف إحساسه عن إحساس من توفي

BROUILLON

له شخص عزيز، قلت لرمزي:

- كاشما عندك طرف قماش مدو للمخلوقة رايحة تغرقنا بدموعها.

فُتِح الباب مرة أخرى كان إيدير والد إيناس، نظر إلينا بحقارة ثمّ ثبّت نظره في مانو وقال:

- ألم أقل لك ألّا تعود إلى هنا مجددا أيّها الحقير؟

اشتعلت غضبا وقلت: ابنتك تحبّه وهو يحبّها لماذا تسعى في خراب علاقتهما؟ هل كلّ ما يهمّك هو المال؟ وهل المال يعتبر مقياسا للحبّ والسعادة؟ خاف مولاك يا رجل إنّهما يحبّان بعضهما، لا تحرمهما من السعادة التي لا طالما انتظراها.

أجابني مخاطبا: اذهب من هنا أيّها الغبيّ، ما دخلك في ابنتي؟

قلت: غبيّ.. أنا غبيّ؟

وضع رمزي يده في فمي وسحبني قائلا: اسمع، خلاص السيد راك تشوف فيه مال وقوة وسلطة والله ايلا يدير بينا شربة فريك.

درت ناحية مانو وقلت: هيّا مانو، لا عليك، الله سيعاقب كلّ ظالم، وقلت الآية الكريمة ونظري في وجه والد إيناس: "وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ".

عدنا أدراجنا وما إن فتحنا البوابة الخارجيّة حتى اصطدمت بيوبا، نظر إليّ بفزع ونظرت إليه باندهاش وقلت:

- يوبا واش راك دير هنا؟

قال: أسرع اذهب من هنا، سنلتقي فيما بعد.

©EL-MOUTHAKAF

عدنا نتمشى ثلاثتنا بصمت رهيب، مانو شارد الذهن وعيناه تبكي ألما عمّا سمعه من والد إيناس، الحبّ ألمه يمزّق القلب ويمزّق الكبرياء، لأوّل مرة أرى مانو بهذه الحالة، رقّ قلبي لحاله جدا وحدّثت نفسي قائلا:

- لمزية لي العبد ما حبّ حتى وحدة في حياتو.

رمزي يتحدّث مع نفسه قائلا: يجيبهالو ربّي، حقار الرجال يموت ذليل.

بينما أنا كنت أفكّر في يوبا وأحدّث نفسي قائلا: واش راه يدير تما، يعني يخدم مع والد إيناس ولا يتعامل معاه في كاش حاجة، تبانلي الحكاية فيها اللوش، الله يجعل الخير، من بعد كي يجي نعرف واش كاين.

عدنا أدراجنا متجهين نحو المحل، بينما مانو كان عليه أن يعود إلى البيت فوالدته تحتاج للرعاية، طلب منّا أن نهتم بأعمال المخبزة غدا وقال بأنّه يحتاج إلى الراحة، عدت أنا ورمزي إلى المحل، فضّلنا أن نذهب من طريق مختصر من خلال أحد الشوارع، كانت ليلة باردة يسودها الهدوء والظلام، أشرت قائلا لرمزي:

- أسمع، شفت السامط تاع أب إيناس كيفاش دايرّ؟ كي عشية العيد، تبانلي راهو واحد من النّاس لي متحكمين في المدينة، بصح مانظنش إذا كان هو الرأس الكبير.

قال رمزي: يا ودي راس كبير ولا صغير، فوتنا يا خويا الله يسهل يزوجها ولا يسرقها، ما تزيدش دخل روحك في أمور كبيرة علينا.

قلت: بصح يا خويا مانو وقف معانا لازم نوقفو معاه.

أجابني قائلا: يا خويا هو لي باقي لاصق فيها كي السكوتش، قلتلو المدينة معمرة نساء خيّر وحنا نخطبولك.

PROUILLON

ما إن وصلنا إلى الشارع الذي تقع فيه مخبزة مانو حتى استقبلت ضربة على رأسي أفقدتني وعيي،استيقظت على دلو ماء سُكِب على وجهي، فتحت عينيّ وصداع رهيب في مؤخرة رأسي، أحسست وكأنّه نبتت حبة بطاطا في رأسي، وجدت نفسي مُكبّلا في كرسي وتتوسطنا طاولة خشبيّة عريضة وأمامي رمزي مكبل مثلي.

غرفة صغيرة مضاءة بشموع وعصى ملتهبة، قلت:

- رمزي رمزي نوض، راك مليح؟ وين رانا؟

قال رمزي وهو يحرّك رقبته: ماعلابالیش، غير كيما حسيت شغل واحد هبط عليا بضربة للراس.

جاء لمقابلتنا شخص يرتدي ملابسا سوداءً، يضع على رأسه رداءً أسودا وفمه ملثّم ويحمل في يده عصا غليظة مغروس فيها مجموعة من المسامير، تقدّم نحونا واضعا يده على الطاولة، راح يجول بنظره الحاد إلى كلّ واحد منّا وقال:

- هل يمكن لغبيين مثلكما أن يتجسسا على زعيمنا؟

أدرت رأسي بغرابة لرمزي وقلت: واشبيه هذا؟ ثمّ قلت للرجل: يا أخي راك غالط ربما شبهتنا ولا كاشما شربت دواء خاطيك.

ضربني بلكمة في وجهي وقال: لا تحاول أن تتذاكى علينا.ثم أردف: بأيّ لغة تتحدّثان؟ قلت وأنا أبصق الدم من فمي:

- رانا نهدرو بالهنديّة، اطلق جدنا يرحم والديك، مادرنا والو حتى تمرمدنا كيما هكا وزيد طايح بويكا قدام واحد مربوط، اطلقني نعرضك على دبزة عروبي نمرمدك.

@EL-MOUTHAKAF

ذهب ناحية رمزي وقال: تكلّم، من أرسلك؟ وإلّا سأغرس هذه المسامير في رأسك.

قال رمزي برعب: والله يا عمي غير راك غالط فينا، رانا حراقة جينا نخدمو نديرو التاويل.

ثمّ في لحظة دخل شخص آخر ملثّم مثله، وقال له: لقد أرسلني الزعيم لاستجوابهم يمكنك الذهاب لعملك.

ما إن خرج الرجل من الغرفة حتى نزع الغطاء عن وجهه، إنّه يوبا.

قلت: يوبا يحقرو فينا قدامك وأنت معريفة، والله ما تزيد تدي فتفوتة خبز وديجا رانا راح نكبرو المشروع نعودو نخدمو المحاجب، آه ألم تقل لي أنّك عدوّ له ورأيتك داخلا إلى بيته؟

أجابني قائلا: لماذا جئتما إلى هنا؟ هل أصابكما الجنون؟ ألم أقل لك أنّني عدوّ لهم ويجب عليّ العمل معهم؟

قلت: إذًا هو من يسيطر على المدينة.

قال: لا، هو يمسك جزءًا، لكن مع ذلك فهو يعتبر نقطة البداية بالنسبة لي، إذا قضيت عليه فسوف أسيطر على حدوده ونشرع في فتح باقي الأجزاء حتى يسود حكمنا وننطلق في فتوحات ما بعد الحدود، إنّه لا يملك الكثير من الرجال حوالي ٦٠٠ رجل فقط.

- فقط؟ يا راجل خاف مولاك، ٦٠٠ رجل لوكان يدخلوا في البحر يغرقوه، على كلّ حال فكّ الحبل، دعنا نعود أدراجنا لقد مرمدونا الله يذلهم.

قال: أنا سأقول للزعيم بأنّكما تعملان في مخبزة مانو، وسيترككما تذهبان، لكن مع ذلك لقد ارتكبتما خطأ كبيرا، لقد أصبحوا يعرفونكم

BROUILLON

الآن، إذا اكتشفوا أنّكما أنتما من خرجتما من الغابة سيقضون عليكما، يجب أخذ الحيطة والحذر.

قلت: أنا لم أعد أطيق هذا المكان، أريد العودة إلى وطني، هل تظنّ أنّهم لا يعلمون بأنّك أنت ومجموعتك تقتلون رجالهم في الغابة؟

قال: بلى، لكن لم يكتشف أمرنا.

قلت: أعلم أنّه لم يكتشف أمركم لكنّ رجالهم يتزايدون يوما بعد يوم بينما أنتم عددكم لا يتزايد، لذا يجب أن تحاربوهم علنا، يجب عليكم أن تنهضوا بالثورة، الناس هنا في سُبات، يظنون أنّهم يعيشون في سلام ولا يعلمون أبدا بأنّهم محتلون من طرف عصابة استولت على أراضيهم وخيراتهم، أوّلا يجب عليكم أن تطلقوا على مجموعتكم اسما، بعدها يجب عليكم أن تقوموا بمداهمات نحو رجال إيدير، سيثير ذلك الخوف في نفسه رغم قلة عددكم، لكنّ هذا لا يمنع من أن يشعل فتيل الثورة، في بادئ الأمر سيظنّ النّاس أنّكم تريدون خراب بلدهم، هم يعلمون بأنّ هناك من يختطف الأشخاص من المملكة قبل ظهوركم، في كلّ الحالات سيكتشفون أمركم لذا اخرجوا للعلن وأعلنوا ثورة ضد رجال إيدير.

قال: هل تظن أنّ الأمر سينجح؟

قلت: فقط ضعوا خططا مُحكمة وقم باختيار مقاتلين تثق في قدرتهم وقوّتهم.

خرج يوبا من الغرفة، أصابنا ألم شديد في أيدينا بسبب الحبل المشدود الذي يكبّلنا، التهب الجرح الذي في رأسي، بات كلّ واحد فينا يشكو ألما، بردت أطرافنا من شدّة البرد، كانت ليلة قاسية، عاد يوبا إلينا بعد بزوغ

@EL-MOUTHAKAF

الفجر، اشتعلت عينانا فرحا، ثمّ قلت: - وين كنت يا الهم؟ الروح تاعي راح تخرج، خاصني دوليبران راسي راح ينفجر من شدّة الألم.

استلّ الخنجر من خصره وراح يقطّع الحبال، وقفنا بصعوبة من الكراسي بعدما كانت أطرافنا مخدّرة تماما، قلت لرمزي:

- ياو والله يا إيدير ما راحتلو، ياخي حقرنا ماعليش ندمو في حياتو، ياك علابالك جزائري كي يحقروه واش يدير.

قال رمزي: ماعليش المهم سلكنا.

استدرت ناحية يوبا وقلت: أنا من سيشعل فتيل الثورة، سوف أريه الزنباع وين يتباع خاصة لي لكمني في وجهي، نهار لي نشدو في فيراج ضيّق نشبعو صقلة.

قال يوبا: أنا خجل منكما يا رفاقي، أعذراني فعلت كلّ ما بوسعي لإخراجكم من هنا، ثمّ كيف ستشعل فتيل الثورة هل لديك خطة ما؟

قلت: ليس لديّ خطة مدروسة، أطلب منك أن تحمي ظهري لأنّني سأبدأ بافتعال المشاكل مع رجال إيدير وسأخرج للشارع للتظاهر علنا، الكثير من الناس يعرفون أسامة ورمزي، سأبيّن لهم حقيقة هذه المسرحية التي يعيشونها، كلّ ماعليك فعله هو وضع مقاتلين يحرسون أماكن تواجدنا، لأنّ رجال إيدير يتواجدون في كلّ مكان، وأكيد لن يدعونا نتواصل مع النّاس.

خرجنا من تلك الغرفة عائدين أدراجنا نحو المحل، وصلنا إلى شارع إقامتنا، وجدنا جمعا غفيرا من النّاس ينتظرون أمام المخبزة، استدرت ناحية رمزي قائلا:

BROUILLON

- أسمع وسّخ قشك واعرج برجلك كي شغل كنّا في معركة باه نغيضوهم.

نزلنا ناحيتهم نعرج ونتألّم، ما إن وصلنا حتى تكلّم أحد الزبائن قائلا:

- ما بكما تعرجان؟ ما به رأسك ينزف؟

وقفت في منضدة المخبزة وكانوا يقابلونني وقلت:

- هذه المدينة ليست آمنة كما تعتقدون، أنتم تعيشون تحت استبداد، نطق شخص آخر وقال: ماذا تقصد؟ الأمور جيّدة هنا ومدينتنا آمنة من أين لك بهذه الخزعبلات؟

أجبته قائلا: بلعقل، ما بك تاكل في روحك؟ ألا ترى الحالة التي نحن فيها؟ لقد اختطفنا، تعلّم تسمع ومبعد اهدر، ثم أردفت قائلا: يجب أن تعرفوا بأنّ هذه المدينة ليس اسمها المملكة السوداء.

بدأ النّاس ينظرون لبعضهم بغرابة، فأكملت قائلا:

- أنتم تعيشون في مدينة اسمها سيرتا، ووطنكم ككلّ اسمه نوميديا، لقد سلبوكم هويتكم ووطنكم، أصلكم أمازيغ، انظروا إلى بنيانكم وملابسكم وأساميكم، ثقافتكم أمازيغيّة.

بدأ الناس بالحضور من كلّ مكان وأنا أتحدّث، كانوا ينصتون بجد وأنا أشرح لهم مايحدث في وطنهم.

قال رمزي: فلتعلموا أيضا أنّ الغابة السوداء هي الحدود بينكم وبين ولاية أخرى، سكانها يعيشون نفس ما تعيشون أنتم، يجب عليكم أن تكسروا حاجز الخوف، إلى متى سيظلّ الأشخاص يختفون ويُختطفون من مدينتكم؟

نطق لساني قائلا: كلّ شخص اختفى كان يعرف الحقيقة ولهذا يُقتل.

@EL-MOUTHAKAF

نطق أحدهم من الخلف قائلا: لقد فقدت والدي أنا أيضا، كان أبي دائما ما يقول أنّ مدينتنا تخفي أمرا عن الشعب، ثمّ في يوم من الأيّام ذهب إلى عمله كالعادة، كانت تلك هي اللحظة الأخيرة التي نراه فيها.

قلت: المدينة مقسّمة كلّ مجرم يسيطر على جزء معيّن، يجب عليكم أن تُعْلِموا كلّ السكان بما أخبرتكم به، إنّ هؤلاء المجرمين يعيشون بينكم، سيظهرون للعلن إذا أنتم قررتم أن تحاربوا الزّيف.

قال أحد الأشخاص مخاطبا البقية: كنت أعلم بأنّ يوما ما سيتكلّم شخص وسيفجّر هذه الحقيقة التي لا بدّ لكلّ شخص أن يعلمها.

تعالت الأصوات والهتافات في أنحاء تلك المنطقة، حتى لمحت سهما عابرا كان سيصيبني لولا أن تدخّل شخص ودفعني أرضا، أتت جماعة ملثّمين سحبوا سيوفهم وجاؤوا يجرون نحونا، تفرّق الناس فيما بينهم وأخذوا يهرولون للنجاة بأنفسهم.

قلت لرمزي مخاطبا: نحي البليغة واطلق رجليك.

انطلقنا نركض إلى وجهة مجهولة، ندخل بين الشوارع وبين الأزقة مذعورين، لمحت عربة كانت ممتلئة عن آخرها برجال إيدير، نزلوا منها واحدا تلو الآخر، سحبوا سيوفهم وأخذوا يلحقون بالنّاس، بينما أنا ورمزي نختبئ من مكان إلى مكان، رآنا أحدهم وقال للبقية" أمسكوهم، أمسكوهم"، انطلقنا مجددا نجري، لم نحسْ بأقدامنا من شدة الخوف والعرق يتصبب منّا، وقفنا مختبئين بظهورنا وراء حائط بينه وبين أحد البيوت شبرا واحدا، أخرجت رأسي قليلا لأراقب تحركاتهم، لم أجد أيّ أحد، لا بدّ أنّهم أضاعونا، قلت لرمزي:

BROUILLON

- خلات على جدنا طحتلهم علي لابوانت، درك توصل لحكاية لإيدير، يقلهم جيبوهملي بوراك.

أخذنا نتمشى بحيطة وحذر حتى ظهر أمامنا يوبا ومعه ٣ أشخاص ملثّمين، في بادئ الأمر لم نتعرف عليهم لو لا أن أظهروا لنا وجوههم ثمّ قال يوبا:

- اتبعاني، يجب عليكما أن تختبئا.

انطلقنا معهم نتتبع خطواتهم، كان الرجال الذين يرافقون يوبا أقوياء ومُتمكّنين في القتال،رافقونا حتى وصلنا إلى بيت صغير، فتح يوبا بابا كان تحت سجادة ودخلنا فيه نحو غرفة أرضيّة.

كانت غرفة واسعة مضاءة بعصيّ ملتهبة، في كلّ جدار منها سيوف ورماح وأدوات قتال مختلفة، مجموعة من الرجال يتدربون، وبعضهم يصقلون سيوفهم، صفّق يوبا بيديه، تقدموا إليه واحدا تلوى الآخر، يبدو أنّهم يقدّمون له الولاء الكامل.

قال يوبا بحزم: يا أبطال حان وقت القتال، وطننا ينتظر منّا أن ننصره، وهذا صديقنا أسامة هو من أشعل فتيل الثورة التي عجزنا عن إيقاظها نحن منذ زمن.

قالوا كلّهم بصوت واحد: "جاهزون سيّدي"، ثمّ عادوا يكملون تدريباتهم، ثمّ أشار إلينا يوبا لكي نتبعه، فتح بابا آخرا يقود نحو طريق طويل نوعا، ثمّ سألته قائلا:

- من شيّد لكم كلّ هذا؟

@EL-MOUTHAKAF

قال: من يؤمن بشيء ما يمكنه أن يبني ما يريد، هذا منزلي واتخذت منه مكانا للتدريب.

قلت: إلى أين يقود هذا الممر؟

تبسّم وقال: ستعرف حينما نصل.

أكملنا مسيرنا ثمّ التفت قائلا لرمزي:

- يشبه لسرداب فوربيك تاع أرض زيكولا.

أجابني بعينيه بأنّه لم يفهم شيئا، وقفنا عند باب آخر فتحه يوبا، خرجنا إلى ساحة كبيرة مقسمة إلى أجزاء؛ جزء مخصص لوضع الأحصنة وجزء لوضع الأسلحة والعتاد والجزء الآخر لوضع الألبسة، التفت إليّ يوبا قائلا:

- مرحبا بك في حصننا السريّ.

قلت: سريّ؟ كيفاش سريّ؟ صوالحكم كامل على براء سيكتشف أمركم.

تبسم وقال: نحن الآن على بعد مئات الأمتار عن المدينة وهذا المكان ليس سهلا للوصول إليه فهو يقع بين جبلين، لن يستطيع أي أحد الوصول إليه، حتى رجال إيدير لن يستطيعوا الهجوم علينا.

قلت: حسنا ولماذا أحضرتنا إلى هنا؟

قال: أنت يا صديقي مفجر هذه الثورة المباركة، ننتظر منك التعليمات للهجوم على أوّل زعيم في هذه المدينة.

قلت: لا ياخو، ما تعوّل عليّا مانعول عليك، أنا جاجة مانكتفهاش تعوّل عليّا في خطة تاع قتال.

قال: لا أفهم، ماذا تقصد؟

PROUILLON

قلت: أنا لا أعرف كيفية وضع الخطط.

قال رمزي: علّمونا كيفية القتال، أريد أن أصبح بروسلي.

التفت إلى رمزي قائلا: ما يعلمونا ما نعلموهم، عندنا العراك العروبي.

قال يوبا مخاطبا أحد مقاتليه: أحضر لصديقينا الزيّ الرسميّ لمجموعتنا.

جلسنا نراقب المقاتلين وهم يتدربون، إنّهم بارعون في كلّ شيء، ثم قلت ليوبا:

- لديك مقاتلون أكفّاء، أشكّ إنّ كان رجال إيدير بهذه البراعة.

قال: أعلم، لكن نحن كما ترى قليلون.

قلت: ما رأيك أن تقوموا بمداهمة رجال إدير؟ فلنقم بوضع خطة مناسبة، أكاد أجزم أنّكم ستنتصرون عليه.

قال: حسنا صديقي، كما تأمر.

بعد فترة وجيزة أتى أحد المقاتلين حاملا في يديه لباسا لي ولرمزي، ارتديناهما ثم قلت لرمزي:

- كيفاش نبانلك؟ ساموراي؟

قال: الدرع برك جا شوية عريض.

قلت ليوبا: يا خويا أعطيني لاطاي (م).

ثمّ أحسست بشيء من الحماس يسري في جسمي ورفعت صوتي قائلا: "نوميديا بلادنا وندیرو راينا، أوه أوه ماكانش هدنة ويا إيدير"، وقف كلّ المقاتلين يردّدون نفس الشعار.

نظر إليّ رمزي بإعجاب وقال: يا خويا خرجت عليك القيادة.

@EL MOUTHAKAF

قلت له مازحا: كي نروح ندفع دوسي في الجيش يدخلوني كولونال ديراكت.

أعطى يوبا خنجرين لكلّ واحد منّا وقال:

-احملاهما معكما كي تدافعا عن نفسيكما فلقد أصبحتما مطلوبين في المدينة.

ثمّ أرسل يوبا مقاتلا متخفّيا في زي مدنيّ ليرى ماذا يحدث في المدينة ثمّ قلت له:

- مقاتل واحد ما يكفيش، أرسل على الأقل ٥، كلّ واحد فيهم يراقب تحركات أفراد العصابة.

خرج المقاتلون متوجهين نحو المدينة ثمّ في لحظة تذكّرت مانو، أحسست بنوع من القلق اتجاهه، فهم يعلمون أنّه صديقنا ويعلمون أين محله وأين مكان إقامته، استدرت ناحية رمزي وقلت بفزع:

- اسمع، مانو يا جدك.

قال رمزي: واشبيه راه مايخدمش ليوم، راهو في الدار مع يماه.

قلت: لالا يا سطل، راهم علابالهم بلي راهو صاحبنا، راني خايف يخطفوه يدوه رهينة باش يديرولنا كاش فخ يطيحونا.

كان يوبا جالسا ويمسك سكينه ويقوم بصقله بالحجر.

قلت: يوبا، أحسّ أنّ صديقنا مانو سيصاب بمكروه أو ربما يسختطفونه، فهو لا يعلم بأنّني أنا من افتعلت المشاكل مع العصابة في المدينة، هو أكيد يعرف بأنّ المدينة تعرّضت لهجوم لكن لا يعرف أنّه بسببنا، استدرت ناحية رمزي وقلت:

BROUILLON

- نقلك مليار بالمية راح للحانوت، نعرفو يخاف على رزقو كثر من حياتو، في حقو على كلّ حال، هادي هي الحاجة لي يسترزق بيها.

قال رمزي: كيفاش نديرو؟

قلت: لازم نرجعو للمدينة ،ولا نقلك، نستناو الجماعة لي راحوا يقرعجوا كي يجوا يفهمونا واش كاين.

بعد مدة زمنيّة عاد المقاتلان ووجههما مرعوب، تكلّم أحدهما قائلا ليوبا:

- سيّدي المدينة في حالة يرثى لها، وللأسف هناك ضحايا مدنيين، سيّدي نحن نفقد السيطرة، يجب علينا أن نجد حلا.

قاطعتهما قائلا: يجب على الشعب أن يشارك في هذه المعركة، يجب علينا أن نجمع المزيد من العتاد.

قاطعني يوبا قائلا: معنا ما يكفي.

قلت: من نيتك صاحبي؟ دايرلي ربع قصادر وجايبلي موس تاع تفاح تقلي معنا ما يكفي، يجب علينا أن نتوصل إلى المكان الذي يضعون فيه الأسلحة.

قال: هل تقصد أن نُداهِم مقر أسلحتهم؟

قلت: لا لا، نرسل رمزي إلى زعيمهم يقلهم قالتلكم ماما أعطينا شوية ملح، نعم يجب علينا مُداهمة مقر عتادهم لكي نستطيع توزيع الأسلحة على المواطنين، لأنّه دون مساعدة المواطنين لن نستطيع أبدا هزيمتهم، صديقنا مانو في خطر، يجب أن نجده قبل أن يروح في ستين داهية.

قال يوبا: أنتما تعرفان مكان إقامته، لذا يجب أن نذهب معا وسوف أكلّف مجموعة من المقاتلين بحماية ظهورنا.

@EL-MOUTHAKAF

غيّرنا ملابسنا إلى اللباس المدنيّ، قلت في نفسي: تحيا السيفيل، الكومبا تحسب بيبي مقمط. وضعت السكين تحت كفة القميص وغطّيت رأسي برداء أسود.

قال يوبا: سنخرج من البيت مثنى مثنى.

خرجنا وتوجهنا نحو بيت مانو، كانت المدينة في حراسة مشدّدة، جنود إيدير أصبحوا يراقبون كلّ شخص يمرّ بجانبهم بل و يفتشون كلّ شيء، كنت أنا ويوبا في الأمام ورمزي وشخص آخر من ورائنا و٣ أشخاص تفرّقوا في الطريق التي كنّا نتمشى فيها تحسبا لأيّ هجوم.

رفعت رأسي أنظر إلى أسقف المنازل، ثمّ قلت ليوبا:

- كلّ الأسطح خالية تماما من الجنود، إنّها فرصة عظيمة للنيل منهم هل تملك رماة جيّدين؟

قال: نعم كلّ جنودي جيّدون في الرماية.

قلت: دعنا من هذا الآن.

وصلت إلى بيت مانو، دققت على الباب، فتحت أمّ مانو الباب فقلت:

- يا خالة هل مانو موجود؟

قالت: لا، لقد خرج من البيت منذ قليل، ذهب ليتفقد المحل، لقد سيطروا على المدينة وأرغمونا على الجلوس في منازلنا وأيّ شخص يخرج سيلقى حتفه.

قلت لها: ماعليش خالتي، سوف نجده.

عُدْنا أدراجنا ذاهبين نحو المخبزة، ما إن وصلنا حتى وجدت مانو يقف أمام الباب، كنت سأناديه لولا أن ظهر جنديّ من جنود العصابة أمامه وقال:

BROUILLON

- ألم تعلم أنّنا طبّقنا حظر التجوال وأيّ شخص يخرج من المنزل سيعاقب ؟

قال مانو: أنا صاحب هذا المحل ومن حقي أن أتفقد أشيائي.

ثمّ قال له: أنت مانو صديق الشخصين اللذين افتعلا المشاكل في المدينة.

فردّ مانو: أنت مخطئ فيما تقول، ليس عندي أصدقاء في هذه المنطقة.

أخرج الجنديّ السيف من غمده وقال: ستذهب معي إلى الزعيم. ونادى على أصدقائه قائلا: يا رفاق لقد وجدت صديقهما، زعيمنا سيبتهج فرحا بما سنقدّمه له اليوم.

أشار إليّ يوبا بالهجوم وأشرت بدوري إلى رمزي، كنّا ستة مقاتلين ضد خمسة، سحب يوبا سهما وصوّبه ناحية الجندي الذي كان سيهاجم مانو، أسقطه بضربة واحدة اخترقت قفصه الصدريّ وخرجنا كلّنا نجري نحوهم، سحبت الخنجر من يدي وما إن وصلت حتى غرسته في ظهر جندي من الجنود.

قال مانو بتوتر: أسامة، رمزي كيف أتيتما؟ ماذا يحدث؟

قلت لا وقت للكلام الآن، هيّا اتبعنا.

أمسكت مانو من ذراعه وانطلقنا نجري باتجاه المخبأ السريّ الخاص بيوبا ومجموعته، مانو يجري ويلتفت وراءه، قاطعت شروده قائلا:

- هيّا خويا أسرع من بعد تفهم واش كاين.

اجتمعنا كلّنا نجري في شارع واحد حاملين في أيدينا السكاكين، سمعت أصوات الجنود يصرخون من المكان الذي هاجمناهم فيه،حيث قال أحدهم:

@EL-MOUTHAKAF

- أسرعوا أمسكوا بهم لقد هربوا من هذا الاتجاه.

ما أن وضعنا أقدامنا في نقطة الخروج من الشارع الرئيسيّ حتى لمح يوبا مجموعة كبيرة من الجنود، راحوا يفتشون كلّ شبر من الشارع بحثا عنّا.

قال يوبا: عودوا أدراجكم و تأهبوا للقتال في أيّ لحظة، سوف يتوغلون هنا.

طلب مانو من أحد المقاتلين سيفا من السيوف التي غنمنها من الجنود الذين هجمنا عليهم. ثمّ تابع يوبا قائلا: يجب أن نتفرق لكي لا يُكشف أمرنا وينالوا منّا.

توغلت أنا ويوبا ومانو في شارع صغير، كانت بيوته متقاربة من بعضها البعض، كان خاليا تماما من الأشخاص، كلّهم كانوا مختبئين في بيوتهم خوفا من الجنود، بدأنا نتمشى بحذر شديد ثمّ التفتُّ لمانو قائلا:

- وين راه رمزي؟ أين ذهب؟

التفت إليّ يوبا مطمئنا لي: لا تقلق إنّه في حماية أمهر مقاتلي مجموعتي.

امتزج الخوف مع الشجاعة في تلك اللحظة وجعلا منّي شخصا صلبا، إمّا أن أنتصر أو أموت وأنا أقاتل، أكملنا المشي بحذر وكلّ واحد فينا يحمل في يده سيفا متأهبا للقتال. بدأت أصوات الجنود تقترب منّا شيئا فشيئا، كانت أعدادهم كثيرة ونحن ثلاثة أشخاص فقط، ثمّ في لحظة التقينا وجها لوجه مع أعداد معتبرة من الجنود، ما أن رأونا حتى ضحك أحدهم باستهزاء وقال:

- سوف نصنع من جثثكم طعاما للكلاب.

BROUILLON

أمسكت سيفي بقوة وتأهبت للقتال، استدرت ناحية مانو، رأيته حازما وعيناه توحي بأنّه سيقاتل بشراسة، بينما يوبا كان هو الأعقل بيننا، كيف لا وهو أشرس مقاتلي مجموعته، أجابهم يوبا مبتسما:

- الكلاب لا تأكل جثث الأبطال بل تأكل لحم المجرمين فقط، هيّا أيّها الغبيّ، سيفي متعطش لدمائك العفنة.

انطلق يوبا ناحية أحدهم بشراسة، استلّ سيفه وغرسه من بعيد في صدره، تقدّم شخص آخر ناحيتي ورفع سيفه نحوي ثمّ من دون أن أشعر تصدّيت له بسيفي، وقعت أرضا ووقع منّي السيف، قال بصوت خشن:

- انتهت حياتك أيّها الأحمق.

رأيت ظل مانو، تصدّى له بشراسة ثمّ دفعه بقدمه فسقط في الأرض وغرس مانو السيف في بطنه.

وقفت متأهّبا أحمل سيفي، كان يوبا قد أسقط العديد من الجنود، سمعنا صوتا قادما من الأمام، لقد لحق الكثير من الجنود كأنّهم طوفان.

قال يوبا: هيّا أسرعوا، لنخرج من هنا.

فجأة فُتحت أبواب كلّ بيوت الشارع، خرجوا شبابا ورجالا يحملون في أيديهم فؤوسا وأدوات الفلاحة، هجموا على الجنود رغم أنّهم لا يملكون سيوفا أو رماحا إلّا أنّ عددهم أرهب الجنود فعادوا أدراجهم خائفين.

توقّفنا ثلاثتنا ننظر إلى سكّان الشارع وهم يلحقون بالجنود، استدرت ناحية يوبا وقلت:

- ألم أقل لك أنّ قوة الشعب هي الحل في هذه القضية؟

أجاب بتحريك رأسه، ثم قلت لمانو:

@EL-MOUTHAKAF

- يا خويا راك جزّار حتى أنت، حسبتك أنوش أيا طلعت أنوش مافيا.

تبسّم وقال: عندما يصبح الدفاع عن الوطن واجبا يصبح الجسد لا يبالي يا صديقي، إذا كانت نهايتي وموتي في سبيل الوطن فهذا شرف لي.

جاء رمزي ومن معه من المقاتلين مُتكئا على أحدهم والدم يسيل بغزارة من قدمه، انطلقت بذعر نحوه، ما إن وصلت حتى وضعت كتفي تحت ذراعه وقلت:

- رهجوجي صاحبي لباس عليك؟ شكون دارلك هكا؟

قال: خرجت مع واحد كان رافد خنجر في رجلو طيحتو في الأرض جيت نخرجلو نطعنو غدرني في رجلي.

عدنا أدراجنا نحو المخبأ السريّ، أتى ٣ مقاتلين فرحين قائلين ليوبا:

- سيّدي لقد استولينا على عدد كبير من الأسلحة.

رفع يوبا صوته لسكان الحي: نوميديا هي وطنكم وسيرتا هي مدينتكم، دافعوا عنها وابنوا مستقبلا لأحفادكم.

وأمر المقاتلين بأن يوزعوا الأسلحة على السكان. نطق أحد السكان قائلا:

- أنا حدّاد، سأصنع ما أستطيع من السيوف، يكفي أنّكم تحاربون من أجل وطننا ونحن كشعب سنقاوم معكم إلى أن ننتصر.

قلت ليوبا: رمزي في حالة حرجة، إنّه يفقد الكثير من الدماء.

ثمّ فقد رمزي وعيه واصفر وجهه. صحت قائلا:

- هيّا أسرعوا. حملته أنا ومانو فوق أكتافنا وانطلقنا به إلى المخبأ.

BROUILLON

دخلنا بسرعة، كان رمزي مغمى عليه ويتألم بسبب الجرح بشدة، وضعه يوبا فوق بساط، كان الدم ينزف بغزارة، أمر أحد مقاتليه بأن يقوم بتسخين خنجر فوق النار. نظرت إليه بغرابة وقلت:

ماذا ستفعل بخنجر ساخن؟

قال: يجب أن نكوي الجرح، وإلّا لن يتوقف النزيف.

نظرت ناحية رمزي الذي بدأ بالهذيان وهو فاقد للوعي وقلت ليوبا:

- هل أنت متأكد من أنّ هذه الفكرة فعالة؟

وقف ورفع قميصه عن بطنه وقال:

- انظر إلى هذه الطعنة، كادت أن تقطع أنفاسي لو لم يتمّ كيّها.

قلت: يا أخي أنت معتاد على الطعنات، لكن نحن في عالمنا يعالجون الجروح عن طريق الخياطة، ستضع الخنجر على جلده وسيذوب كالزبدة.

قال: لا خيار آخر، ثق بي حياة رمزي على المحك، يجب أن نكوي الجرح بأقصى سرعة.

أحضر المقاتل خنجرا محمرّا من شدّة الحرارة، فتحت فم رمزي ووضعت فيه قطعة من الحطب لكي لا يضغط على أسنانه، أمسك يوبا بالخنجر ووضعه مكان الجرح، استيقظ رمزي مهلوعا من شدّة الألم وراح يضغط بفمه على قطعة الخشب حتى فقد وعيه فور أن نزع يوبا الخنجر من قدمه.

ثم تبسّم يوبا وقال: لا تقلق سوف يستعيد وعيه.

قلت: ولكنّ أثر الاحتراق سوف يلتهب.

@EL-MOUTHAKAF

أخرج من جيبه مرهما وقال: هذا المرهم مصنوع من الصبار، سوف يمنع الجرح من الالتهاب، لا تقلق، صديقك بخير.

جلست أمام رمزي أراقب ملامح وجهه.

قال يوبا: سوف تصيبه الحمى، اجلب دلو ماء وقطعة قماش وبلّلها وضعها على جبهته ريثما يستيقظ.

جلست ليلة كاملة مع رمزي أراقب حرارة جسمه، ثمّ أتى مانو ويوبا وجلسا أمامي، قال لي مانو:

- اذهب لترتاح قليلا يا صديقي، سوف نتكفل بأمر رمزي.

قلت: أنا بخير لا تقلقا، أنا جالس معه حتى يستعيد وعيه.

نهض يوبا وأحضر لي رغيف خبز والقليل من الدجاج المشويّ، تناولته وجلسنا نتبادل أطراف الحديث ثمّ قلت:

- يوبا، يجب أن تصبح ملكا في هذه البلاد.

أجابني قائلا: ماذا؟ لم أفهم قصدك.

قلت: لقد درست حضارتكم وتاريخكم، ولقد تحدّثت مع مانو وقلت له بأنّني لم أعرف أيّ عصر أنتم تعيشون فيه، لكن أيقنت بعدما بدأت الثورة أن تاريخكم يقول بأنّ الملك القادم اسمه يوبا.

قال: ولكن المملكة فيها الكثير من الأشخاص اسمهم يوبا، لماذا أنا بالتحديد؟

قلت: لأنّك أنت الذي يسعى منذ مدة طويلة إلى تحرير البلد، يجب أن تقرروا مصير وطنكم بيدكم.

BROUILLON

صمت برهة ثم قال: أنا لا أعرف الاستسلام، إمّا أن أنجح أو إمّا أن أنجح.

تبسّمت وقلت: إذا سوف نضع خطة محكمة للإطاحة بإيدير وعصابته ومن ثمّ سنتوغل للإطاحة بالسيّد تاشفين وأعوانه.

تبسّم وقال: لأوّل مرة أحسّ أنّ كفاحي سيأتي بثماره.

ثمّ استيقظ رمزي وقال: أسامة، مانو، يوبا، واش صرا؟

قلت مازحا: ما كان والو، جعنا نحينالك مورصو من رجلك درنا بيه شخشوخة.

تبسّم بصعوبة وقال: راني ميت بالشر، كاشما كاين حاجة ناكلها؟

أمر يوبا واحدا من المقاتلين بأن يحضر الطعام لرمزي.

تركنا رمزي يرتاح، استدرت ناحية يوبا ومانو وقلت:

- حان وقت وضع الخطة للإطاحة بإيدير وعصابته.

قال مانو: ولكن هو والد إيناس، أخشى أن يفطر ذلك قلبها.

قلت: والله يا مانو خويا مين ذاك تحبّسلي مخي، والدها كريمينال يا خويا، ومنعها من الزواج بك، هذه هي فرصتك للتخلص من الحاجز الذي يعرقل علاقتكما.

صمت برهة وقال: معك حق، يجب أن أنتشلها من ظلمه.

أحضر يوبا خريطة المدينة، بدأنا ندرس الأماكن التي يتمركز فيها رجال إيدير. دخل مقاتل من مقاتلي يوبا وقال:

- لقد وزعنا الأسلحة على السكان وانظمّ إلينا ما يقارب ٣٠٠ شاب ورجل في المعركة، وأغلبهم يعرف حمل السيف والقتال.

©EL-MOUTHAKAF

قال يوبا: جيّد جدا يا أجراد. (أجراد هو رئيس المحاربين، حمّله يوبا مسؤولية تدريب المقاتلين، يملك من القوة والذكاء ما يجعل منه محاربا أسطوريًّا، يقاتل بالفأس بدل السيف)

قال أجراد: سيّدي هل يمكن لي أن أنظمّ معكم في التخطيط؟

قال يوبا: نعم، خططك دائما ما تنجح يا أجراد.

وضعنا الخريطة فوق الطاولة، بدأ يوبا بتوضيح أماكن تواجد جنود العصابة وأين يتمركزون وأوقات حراستهم.

سألت أجراد قائلا: كيف حال المدينة الآن؟

قال: للأسف جنود العصابة مسيطرون على كلّ شبر، ليس ذلك فقط، بل راحوا يعتدون على الشعب.

قلت: وماذا عن الموقع الذي يتواجد فيه إيدير؟

قال: الحراسة فيه مشدّدة، وطلب كذلك من السيّد تاشفين أن يمدّه بالمزيد من الجنود والأسلحة، الشعب غاضب ومتعطش للحرية، ينتظرون منّا إشارة التمرّد فقط.

قال يوبا: نعم، يقع على عاتقنا رسم طريق المداهمة وسيساعدنا الشعب.

قال مانو: من رأيي أن تقوموا بتقسيم المقاتلين إلى طلائع؛ الطليعة الأكبر هي من ستداهم منزل إيدير، وباقي الطلائع تهاجم نقاط الحراسة، سيتشوش جنود إيدير ويغادرون أماكنهم.

قلت: نعم يا مانو، فكرة جيّدة، إذا يجب أن نُعلم كافة الشعب وكافة القاطنين في المدينة أنّ المداهمة ستكون غدا في وضح النهار، لكن يجب علينا أن ننشر هذا الخبر في سريّة تامة لكي لا يحدث أيّ خلل.

BROUILLON

أجابني أجراد: كيف سنعلم الشعب في سريّة تامة؟

قال مانو: بما أنّ العصابة تفرض حظر التجوال في المدينة فالأكيد أن كلّ السكان سيكونون في بيوتهم، يجب أن نوزّع عليهم قصاصات صغيرة عن موعد الانطلاق.

قال يوبا: معك حق، لكن نحن لا نعلم إن كان منهم من يؤيد إيدير، فله خونة وجواسيس، هل تظن أنّه لن يتفطن لمثل هذه اللعبة؟

قال مانو: إذًا ماذا نفعل؟

جاء صوت قادم من الخلف وقال: الحرية يا سيّدي ليس لها وقت وليس لها تخطيط.

أدرنا وجوهنا كلّنا للخلف، إنّه رمزي.

قلت: رهجوجي راك حي، طير ترقد، كي ترتاح نديروا معركة كيف كيف

تبسّم وقال: يا خويا خلينا نشاركو معاكم في التخطيط.

قلت: إيه ريح أنت بقرة ترجعها طير.

ضحكنا كلّنا، وقال يوبا لرمزي: هل في جعبتك فكرة ما؟

قال رمزي: أنتم تفكرون بأمر الخونة الذين يتواجدون بين الثوار، هذا أمر بسيط، سينكشف أمرهم فور أن تبدأ المعركة، الثوّار الحقيقيون سيدخلون في غمار المعركة عندما نبادر نحن في القتال.

نظر إليه أجراد وقال: معك حق، الخونة مهما كان عددهم هم ضعفاء عندما يكونون في ميدان الثوار، لذا أنا مع خطة مانو عندما قال أن نقوم بتقسيم المقاتلين إلى طلائع.

@EL-MOUTHAKAF

خرج يوبا إلى المقاتلين، كان كلّ واحد فيهم منهمك بشغل ما، خاطبهم يوبا قائلا:

- أيّها الأبطال، يوم غد سندخل المدينة كبحر هائج، سيقوم السيّد أجراد بتقسيمكم إلى طلائع، أرجو منكم أن تتبعوا التعليمات، أنا أرى في وجوهكم التعطش للحرية، للحرية ثمن وثمنها هو الشجاعة واتباع قادتكم.

رفعت السيف بيدي وقلت ليوبا: هل لك أن تعلّمني القليل من مهاراتك أيّها المقاتل القويّ؟

تبسّم وقال: حسنا، أحضر صديقك مانو، فهذا شرف لي أن أقاتل بجانب من علّمنا أنّ الحرية تأتي بالتمرد على الظالم.

كان من بين الأمور التي وضعها يوبا في الخطة هو أنّ كلّ المقاتلين يخرجون بملابس عادية كي لا يكشف أمرهم ويتمركزون كلّهم في أماكنهم، لأنّ الأخبار تقول أنّ زعيم العصابة الكبير أرسل لكلّ زعماء المدينة بأن يتركوا المجال للشعب بقضاء حوائجهم لمدة معيّنة في النهار، ليس حبًّا فيهم وإنّما لكي يستمروا بضخ الأموال في جيوب هؤلاء اللصوص، كان هذا الخبر يمثّل ورقة رابحة للشعب الثائر وليوبا ومقاتليه خاصة.

غيّرنا ملابسنا وكان أجراد واقفا في الساحة يتحدّث مع المقاتلين وعيّن لكلّ طليعة قائدا يستكلف بتوجيههم أثناء المعركة.

وقفت أنا ويوبا ومانو ننظر إليهم ثمّ وجّهت ليوبا سؤالا قائلا:

- والدك اسمه يمسال؟

PROUILLON

أدار يوبا رأسه مصدوما وقال: كيف عرفت؟

تبسّمت وقلت: قلت لك أنّني درست تاريخكم وأعرف كلّ الملوك الذين مروا من قبلكم، لهذا أخبرتك من قبل أنّك ستصبح ملكا في نوميديا.

اغرورقت عينا يوبا وقال: كلّ عائلتي قُتلوا من طرف هؤلاء المرتزقة الخونة، كلّ ما أعرفه من عائلتي هو اسم أبي يمسال الذي لم ألتقِ به ولم أعرفه أبدا.

تبسّمت وقلت: لكن يا صديقي سيخلفك ابنك الذي سيحمل اسمك وسيكون أيضا ملكا، سيحكم دولة اسمها موريطانيا.

ضحك والدموع في عينيه وقال: يا صديقي هل أنا أحلم أم أنّ الأيّام الحلوة التي يئست من أنّها لن تتحقق آتية؟ ثمّ مازحني قائلا: هل أنت عرّاف أم ساحر أم ماذا؟

قلت: يوم اكتشفت أنّني في مملكة نوميديا أحسست أنّني خلقت من جديد، فهذه المملكة من أروع الأماكن التي تمنّيت أن أعود للماضي لأعيش فيها، وها أنا فيها وها أنا أشارك في معركة لتحريرها.

كان مانو تائها ينظر إلى المقاتلين وهم يتأهبون ويتنهد، قاطعت شروده قائلا:

- ستتزوجها، أعدك.

تبسّم وقال: لا، لا، أنا لا أفكّر بها.

قلت: يا ودي ريح طرونكيل، نعرفك كيما تشرد.

ضحك وقال: في الحقيقة أنا خائف أن يصيبها مكروه.

@EL-MOUTHAKAF

قلت: لا تقلق، لقد تحدّثت مع يوبا بخصوص هذا الأمر وقال أنّنا سننقذها من يد ذلك السافل، فأنا أعلم مكانها وهو يحتجزها في... ثمّ صمتت

قال مانو: أين يحتجزها؟

قلت: لا عليك، المهم أمرك مفروز، لا تقلق يا صاحبي، لم يصبها أيّ أذى، هي محتجزة في غرفتها فقط، أريد منك أن تتحوّل إلى ذئب هائج فنحن نحتاج إلى شراستك.

حملنا سيوفنا وأخفيناها في ملابسنا وخرجت كلّ طليعة في اتّجاه مخالف للطلائع الأخرى، كنت أنا ومانو من بين المقاتلين الذين سيداهمون المقر الرئيسيّ لإيدير وأعوانه، علّمني يوبا الرمي بالقوس وحمل السيف، ليس كمقاتل حقيقيّ لكن المهم أنّني أستطيع الدفاع عن نفسي أو حتى خدش عدوّي، انطلقنا نحو المدينة، وصلنا بعد مدة زمنيّة ليست بالطويلة، كانت الحياة في المدينة كسائر الأيّام؛ التجّار يعرضون سلعهم على المارة والنّاس يشترون لوازم منازلهم، لكن لا أثر للأطفال الصغار أو النّساء.

قلت في قرارة نفسي: إنّهم شعب عظيم بحق، شعب واعٍ ومتحضر وكأنّهم يعلمون أنّ المعركة ستنطلق بعد بضع دقائق.

كنّا نتمشى بين الأزقة وبين النّاس، نظرت لأسطح المنازل، رأيت الرماة قد تمركزوا في أماكنهم استعدادا للرمي، كان جنود العصابة يتجولون ويراقبون بحذر فلقد أصبحوا يعرفون بأنّ قوة ما على وشك الانفجار بعدما وصلهم خبر بأنّ الكثير من الشباب والرجال قد انضموا لصفوفنا، أكملنا طريقنا نحو مقر إيدير فهذا المكان خاص بطليعة من الطلائع، كان المقاتلون يتمشّون خلفنا، لكن كلّ شخص في زاوية من الطريق.

BROUILLON

وصلنا إلى ساحة المعركة، وقفت أنا ومانو ويوبا ننظر إلى منزل إيدير، لا بل قصره والجنود يحيطون بالمكان، رماة يقفون فوق سطح القصر، كلّ واحد فيهم يركّز نظره في زاوية ما، بينما الجنود يحملون الرماح والسيوف والدروع مشكلين جدارا حاميا يصعب الولوج إليه، أصابنا الإحباط في لحظة.

قال يوبا: الرماة، الرماة هم من يجب علينا إسقاطهم أوّلا، أشار إلى خمسة مقاتلين يحسنون الرمي بأن يتمركزوا فوق البنايات القريبة من المنزل. ثمّ قلت أنا:

وماذا عن هذا الجدار البشريّ؟ كيف سنحطّمه؟

تبسّم وقال: الآن.ثم صرخ: القتال القتال.

استلّ يوبا سيفه بقوة، سحبت أنا ومانو سيوفنا أيضا، اندفع كلّ مقاتلي طليعتنا نحو جنود إيدير الذين يقفون كأنّهم جدار حديديّ يحمي زعيمهم، أشار يوبا للرماة بأن يُسقِطوا الجنود الذين صوّبوا سهامهم نحونا، بدأت معركة شرسة، يوبا كان أوّل من اندفع نحوهم كأنّه نمر جائع، راح يسقطهم واحدا تلوى الآخر، كنت أنا ومانو نقاتل جنبا إلى جنب، قُتل من مجموعتهم العديد من الجنود، كانت المعركة تسير بشكل جيّد لو لا أن حضر المزيد من الجنود الذين أرسلهم تاشفين زعيم الجهة الغربية، خرجوا إلينا من كلّ الجهات، حوصرنا وسطهم واندفعوا نحونا بقوة، كان كلّ مقاتل فينا مُهاجَما من طرف جنديين أو أكثر، استقبلت ضربة على قدمي أفقدتني توازني وسقطت أرضا، تقدّم ناحيتي جنديّ ونزل عليّ بسيفه فتصديت له هذه المرة، لم يسقط من يدي فدفعته

@EL-MOUTHAKAF

بقوة، وقع أرضا ثمّ غرسته في بطنه قائلا: "كول البنان".

لم تكن طليعتنا تكفي لقتالهم كلّهم فنحن لم نعلم بأنّهم كانوا يخططون لكي نقع في فخهم، استسلم مقاتلونا لقوّتهم ولعددهم، وانحصرنا كلّنا في حلقة ضيقة، كان يوبا في الوسط وكنت أنا في الجانب الأيمن وأمامي مانو، تقدّم بعضهم حاملين السهام والرماح مصوّبة نحونا والآخرون يحملون سيوفهم ودروعهم.

ذهبت ناحية يوبا الذي هو بدوره لم يدرك هذا الأمر وقلت:

- ماذا نفعل الآن؟ نحن محاصرون.

قال: أتمنّى أن تكون باقي الطلائع أكملت مهامها لكي يلتحقوا بنا، فهي فرصتنا الوحيدة لردعهم، رغم أنّ عددهم كثير لكنّ طلائعنا مقسّمة في المدينة، لو يستطيعوا اللحاق بنا سنحاصرهم أكثر ممّا حاصرونا.

خرج إيدير من شرفة قصره واضعا يديه خلفه ويضحك باستفزاز، نظر إلى يوبا وقال بصوت مسموع:

- أكلّ هذا منك أنت؟ لكن كنت أتوقّع دائما أنّك خائن، وأنّك تخطط لأمر ما، كنت أظنّ أنّك ضعيف ولا تملك كلّ هذا الولاء،يا لك من غبيّ، كنت سأتحدّث مع قائدنا الأعلى لكي يجعل منك حاكما للجهة الشماليّة.

ثمّ نظر إليّ و إلى مانو وقال: حتى الخبّاز وصديقه الغبيّ يقاتلان، يا للعجب.

قلت: شوف أسي، تزيد تقول غبيّ نضربك بكف الغبار يخرج على عينيك.

وضع مانو يده على فمي وقال له بصوت مسموع:

- أنت مجرم نهايتك محتومة، لقد تفطّن الشعب لسياستكم الخبيثة.

BROUILLON

ثم أردف يوبا: آه يا إيدير، هل تظن أنّك هزمتني؟ لا، أنا لم أهزم، كن على يقين إذا مات يوبا، يولد المئات والآلاف مثل يوبا، وفّر كلامك لاحقا لأنّني أعدك أنّ رأسك سيُقطع تحت سيفي.

أشار إيدير بيده إلى جنوده قائلا: اقتلوهم كلّهم.

" لا تستسلموا قاتلوا واقطعوا الرؤوس فلنمت بشرف أو نعيش بكرامة"، كانت هذه الجملة من لسان يوبا حرّكت فينا روح القتال والكفاح، ما أن وضعوا خطوة للأمام حتى لمحت سربا من السهام نازلا عليهم، أسقط بعضهم جثثا هامدة، كان أجراد ومقاتلو طليعته ومعه عدد كبير من النّاس يحملون سيوفهم، انطلقوا يهرولون نحوهم، استعدنا قوّتنا من جديد واندلعت حرب طاحنة أسقطنا الكثير من جنودهم حتى كسرنا الحاجز الذي يحمي قصر إيدير، لحقت باقي طلائع مقاتلينا وأحاطوا المكان، دخلت أنا ويوبا ومانو وأجراد ومجموعة من المقاتلين لنُدَاهم وَكْرَهم، صَفّد حراس إيدير الأبواب، أحضر مقاتلونا جذعا كبيرا من الخشب الثقيل مربوط بحبال وأخذوا يدفعون به الباب لكي يكسر.

قال يوبا: يجب أن نلحق به قبل أن يهرب من المنفذ الآخر.

قال مانو: من فضلك يا يوبا يجب أن أنقذ إيناس، أحسّ أنّها في خطر.

قال: يوبا لا تقلق يا صديقي، أنا أعرف مكانها.

كُسِر الباب ودخلنا كلّنا كالوحوش ننقضّ على الحرّاس الموجودين في الداخل، ذهبت أنا ويوبا وأجراد نبحث عن إيناس من ثمّ نبحث عن إيدير، أمر يوبا باقي المقاتلين بإغلاق كلّ أبواب القصر، أمّا عن المنفذ الذي يستعمله إيدير للهروب فقد أرسل وراءه أحد المقاتلين الذين كانوا

@EL-MOUTHAKAF

يعملون معه في القصر. بدأنا نبحث عنه في كلّ مكان وفي كلّ شبر وفي كلّ غرفة في القصر، حتى سمعنا صراخ إيناس وهي تطلب النجدة في الطابق الأخير الذي يأخذ لسطح القصر، انطلقنا كلّنا نصعد الدرج بذعر، مانو كان أوّل من انطلق، وصلنا إلى السطح وجدنا إيدير ممسكا بإيناس من الخلف واضعا خنجرا في رقبتها، وقفنا كلّنا في السطح وفي الأسفل مقاتلونا وسكان المدينة، ثمّ قال إيدير:

- سوف أقطع عنقها إن اقترب أحدكم.

قال مانو: اتركها أيّها المجرم، هل ستقتل ابنتك؟ اتركها فلا مجال لك للهرب بعد الآن، أقسم لك إن أصابها مكروه فسوف أجعل من جثتك طعاما للذئاب.

قال يوبا ناظرا إلى مانو: هي ليست ابنته، أيّها الحقير لقد اختطفها من والديها وهي صغيرة.

إيناس تبكي وتطلب من مانو التدخل لإنقاذها، قال إيدير صارخا:

- ستموتون جميعا، أعدكم أنّني سأجفّف نسلكم أيّها النوميديون.

رحنا نتقدّم له ببطء وهو يرجع للوراء، سحب يوبا من خصره خنجرا صغيرا وضعه في كف يده، ثمّ اصطدم إيدير بحافة صغيرة ففقد توازنه وسقط أرضا، تحررت إيناس من يده، ما إن حاول أن ينهض ليمسكها من جديد حتى أرسل له يوبا خنجرا استقر في رأسه أرداه قتيلا.

سقط إيدير جثة هامدة، نهضت إيناس تجري نحو مانو واحتضنته، راح ينظر إليها بنظرات الشوق، وهي تبكي وتشكو له ماذا حدث لها في غيابه، وقفنا كلّنا نراقبهما بصمت ثمّ قلت:

BROUILLON

- إيه يا زهري، خلاص يا خويا راح ديرلنا فيلم تركي، العبد عندو جفاف عاطفي ها شوية قدر أسي.

ضحك مانو ونظرا إليّ كلاهما، ثمّ قلت:

- المهم متى نقيم عرسكما؟ عندي مدة ما رقصتش.

قال يوبا: اليوم عندنا عرسين، عرس مانو وإيناس وعرس الشعب بالسيطرة على المدينة، عرسنا الأكبر هو استعادة كافة أراضينا.

وقف يوبا في حافة السطح وقال مخاطبا كلّ الموجودين في ساحة المعركة:

- يا شعب نوميديا العريق أعلن رسميًّا أنّنا قمنا بالسيطرة على المدينة، ومدينتكم هي سيرتا عاصمة دولتنا نوميديا، لن تصبحوا مجهولي الهوية بعد الآن ولن يختطف أبناءكم بعد الآن، رحلة الألف ميل تبدأ بميل، الآن بعدما تمّ قطع أوّل رأس للعصابة، يجب علينا أن نتكاثف كلّنا لنستعيد أراضينا.

انفجرت المدينة بالصراخ والصخب وامتزجت أصوات ضحكاتهم وفرحهم مهللين ويرقصون ويقفزون لما سمعوه من يوبا، ثمّ أشار يوبا بيده في السماء لكي ينصتوا له وقال:

- أترك الكلمة لصديقنا ومفجر ثورتنا المباركة أسامة ليشرح لكم.

أشار إليّ يوبا لأتقدّم، فقلت:

- يا خويا خلينا، العبد يحشم، نبدا نهدر وواحد يقول قيو وكذا منا.

قال: إنّهم ينتظرونك، هيّا تقدّم.

@EL-MOUTHAKAF

تقدّمت إلى الحافة ونظرت إليهم، كانوا جمعا غفيرا يملؤون كلّ شبر من تلك المنطقة، ينظرون إليّ وينتظرون ما سأقوله لهم.

قلت: السلام عليكم، كي راكم صافا غاية؟ حدّثت نفسي قائلا: أحم أحشم بركا بلا جياحة، شد روحك حاسب روحك سولكينج ولا. ثمّ وضع شخص يده على كتفي قائلا:

- اطلق لسانك برك نعرفك توباك في الهدرة.

استدرت ناحيته فإذا به رمزي، الرهج صاحبي ، فقلت: ماش كنت مريض وخلاصلك الدم ولينا نشربولك في عصير الرمان ولقلنالك الشهادة.

ضحك وقال: أهدر مع الناس من بعد ساهل.

استدرت نحوهم وقلت: هنيئا لكم بهذا النصر العظيم، لقد كنتم يدا واحدة رجالا ونساءً وشبابا، وهذا هو جوهر النصر، كما قال السيّد يوبا اليوم هو عرسكم، لكن فلتعلموا أنّ الأعداء لن يتركوكم وشأنكم، يجب عليكم أن تواصلوا الكفاح، هناك شيء يجب أن تعلموه. صمت لساني برهة والتفت إلى يوبا وأشرت له لكي يأتي بقربي، وضعت يدي على كتفه وقلت بصوت عال:

- يوبا هو من سيقود مملكتكم إلى بر الأمان، إنّ وطنكم كبير جدا، إخوانكم في المدن الأخرى ينتظرون منكم تحريرهم، يجب أن تتوحدوا كلّكم في كلّ بقاع هذا الوطن فمملكتكم ذات شأن عظيم ويجب أن تكون كذلك، أتمنّى منكم أن تقدّموا ولاءكم الخالص لقائدكم فيوما ما ستجنون ثمار كفاحكم.

BROUILLON

بدأ أهل المدينة والشعب عامّة بإلقاء شعارات يدعمون فيها يوبا ومقاتليه. عادت الحياة إلى مجراها وانتهى عصر إيدير، أصبح الناس يعيشون حياتهم دون خوف، اتّخذ يوبا من قصر إيدير السابق مقرا له ولمقاتليه، كما انضمّ الآلاف من شباب المدينة وتجنّدوا كلّهم دفاعا عن مملكتهم ومدينتهم، كلّف يوبا أجراد بحماية حدود المدينة، كما أرسل مجموعة من المقاتلين الأذكياء لكي يتجسسوا على تاشفين قائد الجهة الغربية لأنّ الحرب القادمة ستكون ضده، وأكيد أن تاشفين علم كيف كانت نهاية إيدير فلقد أصبح يعلم أنّ يوبا ومقاتليه ليسو بالأعداء الذين يُستهان بهم.

عدت أنا ورمزي ومانو إلى المخبزة، استعادت المخبزة نشاطها وزبائنها..... بعد عدة أيّام حان وقت عرس مانو وإيناس، طلب يوبا من مانو بأن يقيم عرسه في القصر إكراما له وتقديرا لما قدّمه في القتال، لكنّه فضّل أن يقيمه في بيت أمّه، نهضنا صباحا أنا ورمزي، متحمسين.

قلت لرمزي: أسمع وين راهي القمجة البيضا تاعي؟

قال رمزي بارتباك: ماعلابالیش يا خويا، علابالك مانلبسش القمايج.

قلت: وين راحت؟ تبخرت؟

قال: يا خويا درك نهبطو للسوق نشرو وحدة.

قلت: ما تمسخرش بيا، شريتها بخمسين دينار، دوريجين هاديك خدمتهالي تاليس هاديك لي في الدخلة تاع المدينة.

قلّبت كلّ شبر في الغرفة حتى لمحت شيئا أبيضا تحت سرير رمزي، سحبته وجدته قميصي فيه بقعة سوداء، استدرت ناحيته وقلت:

@EL-MOUTHAKAF

- الله يسود أيامك، يعني تخدم غير الكحلة.

ضحك وقال: والله غير جيت ندير فيك مزية نحددهالك أيا تحرقت، درك نروح نشريلك وحدة.

خرجنا من المحل وذهبنا لشراء ملابس جديدة لنحضر عرس مانو، من ثمّ توجهنا إلى بيته حيث كان ينتظرنا بلهفة، ما أن وصلنا حتى احتضننا فرحا وقال:

- لماذا تأخرتما؟

قلت: هذا حرقلي القميص تاعي.

قال رمزي: إيه طرف قماش راح ديرلي عليه قفة حس.

قلت: بلا جدك غير تخسرها، غير نرجعو للخدمة نحيلك خدمة تاع يومين.

ضحك مانو وقال: هيّا كُفّا عن الجدال وتعالا.

دخلنا إلى بيت مانو واتجهنا إلى الباب الخلفيّ الذي يطلّ على حديقة متوسطة نوعا ما ومحاطة بشجيرات صغيرة وجيران مانو يزينون الساحة التي سيقام فيها العرس، والدة مانو استعادت عافيتها وراحت تستكلف بأمور مأدبة الطعام، انضممنا أنا ورمزي أيضا إلى التحضيرات، أحضرنا طاولة كبيرة وطويلة لكي يضعوا فيها الطعام، في المساء جاء يوبا وأجراد ومعه مجموعة من المقاتلين أصدقاؤنا، وراحوا يقدّمون له التهاني.

جاءت العروس صاحبة الفخامة بحلة بيضاء تمشي بحياء وخلفها مجموعة من النساء يتزيّن بحليهن وملابسهن البرّاقة ويغنّين ويحملن في أيديهن الطبول، كان مانو يجلس في كرسي طويل فوق منصة وأمامه

PROUILLON

الكرسي الخاص برفيقة دربه، كنت أنا واقفا أمامه ثمّ قال:

- هيّا يا صديقي، هذه فرصتك لتختار عروسك، انظر كلّهن جميلات.

قلت: ياخويا تحيا بنت بلادي، يا حصراه تاعنا شابات على هادو بزاف.

قال: لكنّ نساءنا أجمل.

قلت: في هادي غير ماتناقش خويا الروجي، بنات بلادي حاجب وعوينة يا دلالي.

ضحك وقال: إذًا نادِ رمزي ليختار عروسته.

نظرت إلى رمزي وقلت: إيه رمزي كي يشوف الماكلة يروح عقلو أو يبلع ويعاود ماشكيتش إلا يشوف مع النساء.

كان حفلا رائعا حتى صمت الصخب في لحظة عندما سمعنا أحد الأشخاص يصرخ من بعيد،جاء يجري ويلهث، وقف أمامي قائلا:

- لقد جاؤوا، لقد جاؤوا.

قلت: شكون جا؟ قول.

قال: جيش تاشفين، إنّهم يقتربون من أسوار المدينة، معهم عدد كبير من الجنود...

وقف كلّ المدعوون مذعورين، نظرت إلى رمزي وهو بدوره نظر إليّ، وقف مانو من الكرسي وقال:

- لن يتوقف ذلك الحقير حتى يستعيد المدينة، فهو يملك من الجنود والعتاد ما لا يملكه يوبا ولا يحلم بامتلاكه.

قلت: ما بك؟ هل أنت خائف؟

قال: لا لست خائفا، لكن...

@EL-MOUTHAKAF

قلت مخاطبا كلّ المتواجدين في الحفل الذين أربكهم كلام مانو وراحوا يتكلّمون فيما بينهم:

هل كنتم تظنون يوما أنّكم تعيشون في دولة اسمها نوميديا؟ هل كنتم تظنون أنّكم سوف تتغلّبون على من كان يخطف أبناءكم؟ العدوّ يبقى عدوّا مهما كانت قوّته وجبروته، لكن يمكنكم التغلّب عليه بالوقوف في وجهه لا الهروب منه، أعلم أنّه يملك القوة بينما نحن ضعفاء في نظره، لكن هل تريدون العودة إلى حياة الظلم والخوف التي كنتم تعيشونها؟ تاشفين هو العدوّ الذي إذا تغلبتم عليه ستكتشفون أراضيكم الأخرى، لا مكان للخوف بعد الآن، استعدّوا للقتال كما قاتلتم في المرة السابقة.

تغيّرت ملامحهم بعدما شحنتهم بهذه الكلمات، أشرت لرمزي قائلا:

- هيّا نروحو عند يوبا نشوفو واش كاين.

قال مانو: انتظراني، سوف أغيّر ملابسي وأذهب معكما.

قلت: لا صاحبي، ريّح طرونكيل، اليوم هو اليوم الذي كنت تنتظره وتتمناه، لا يمكن أن تحرم نفسك وزوجتك منه، سأتكفل أنا ورمزي بالأمر.

امتطينا الأحصنة وانطلقنا بأقصى سرعتنا نحو قصر يوبا، وصلنا ثمّ دخلنا، قال لي أحد المقاتلين:

- سيّدي يوبا ينتظرك في الطابق الأخير.

دخلنا إلى الغرفة التي فيها يوبا، وجدته واقفا أمام النافذة واضعا يديه خلفه ومعه أجراد جالس على الكرسي ممسك خنجرا بيده يغرسه في الطاولة والصمت مخيّم وسطهما.

قال رمزي: واش راكم شوية مع العشية؟

BROUILLON

لم يجيبا ثمّ استدار يوبا ناحيتنا وقال بتنهد:

- إنّ جيش تاشفين قادم.

قلت: آه ولمَ القلق؟ ياك راهو بنادم ماش دينصور.

قال رمزي: ولمَ الخوف؟ سنقاتله كما قاتلنا إيدير.

وقف أجراد وقال: إيدير كان بمثابة حشرة بالنسبة لتاشفين، كلّ العتاد والجنود التي كان يرسلها لإيدير كانوا يأتون بها من الناحية الغربيّة، القائد الأعلى يثق بتاشفين لهذا يقدّم له كلّ مايحتاجه.

قلت: متى سيأتي؟

قال: سيكون هنا بعد عشرة أيّام.

قلت لرمزي: سما الهم هداك تمسخر بينا طلعنا السكر في الباطل، أنا بديت نشوفي باش نشطح وهو جا رما علينا الخبر تاعو، كان غير جا صحيح ماعليش.

جلس يوبا وقال: يجب أن نجد حلولا قبل أن يصل.

قال رمزي: المدينة محاطة بأسوار قويّة، فلنغلق كلّ الأبواب، لن يستطيعوا الولوج إلينا.

قال أجراد: تاشفين يملك عددا معتبرا من المجانيق، لن تصمد أسوارنا أمام ضرباته. قلت: إذًا فلنصنع نحن أيضا مجانيقا ما دام لم يأتوا بعد.

قال: نستطيع أن نبني المجانيق لكن لا تنسى أنّهم سيسقطون أسوارنا لا محالة.

قلت: إذًا يجب أن نبتكر شيئا ما يمنعهم من الوصول إلى المدينة.

قال يوبا: ماذا تقصد؟

@EL-MOUTHAKAF

قلت: يجب أن نقاتلهم خارج المدينة، لأنّهم إذا استطاعوا الدخول إلينا سيدمروننا.

جلست أفكّر في حل ما ثمّ خطرت في رأسي فكرة وقلت:

- لديّ خطة جيّدة، بما أنّ جيش تاشفين كبير يجب أن نقسّمهم.

نظر إليّ رمزي وقال: كيفاش نقسموهم؟

طلبت من يوبا قلما وورقة وبدأت الرسم وقلت:

- لنفترض أن هذه هي ساحة المعركة، جيش تاشفين هنا وجيشنا هنا، سوف نضع كمية كبيرة من الزيت الذي يشتعل عندما تلمسه النّار.

أجراد ويوبا ورمزي يستمعون بتمعن، ثمّ قلت:

- أكيد سيضعون المجانيق في المقدّمة وجزء من الجيش واقف أمامها، نحن سنضع الزيت في وسط الساحة في مكان وقوف الجزء الأوّل الذي سيستكلّف بأمر المجانيق، والجزء الآخر سيبقى في الخلف ريثما تنتهي مهمة المجانيق، سيرسل رجالنا مجموعة من السهام الملتهبة في مكان الزيت، ستشتعل تلك المنطقة و في تلك اللحظة سينقسم جيشهم إلى جزئين جزء يبقى في المقدّمة والجزء الآخر سيبقى في الخلف لأنّه لن يستطيع تجاوز اللهب، سوف نصنع باربيكيو تاع عباد، ستكون لنا فرصة جيّدة للهجوم عليهم بمجانيقنا، ونخصّص مجموعة كبيرة من رماة السهام يتمركزون كلّهم في في أسوار المدينة، ستكون مهمتهم عرقلة تقدّمهم.

قال يوبا: فكرة جيّدة لكن ماذا بعد أن تجاوزوا اللهب؟

BROUILLON

قلت: سنقوم بحفر خندق يبعد عن أسوار المدينة بعشرين مترا، سنضع فيه عصي حادة وطين مبللة، فتاشفين سيلجأ لتسلّق الحيطان بعد أن يفشل في تدمير الأبواب.

تبسّم أجراد وقال: خطة جيّدة جدا، لم يسبق لي أن سمعت بجيش قام بها.

قال يوبا: قلت لي من قبل أنّك فاشل في وضع الخطط الحربيّة، لكنك عبقريّ يا صديقي.

ضحكت وقلت: هي تبدو سهلة على الورق لكنّ تطبيقها على أرض الواقع يتطلّب منّا الحنكة وعدم التسرّع.

قال: إذًا سنباشر غدا العمل، سنجمع كلّ سكان المدينة، يجب علينا أن ننهي العمل قبل أن يأتي تاشفين وجيشه.

نظر إليّ رمزي وقال: واش راك تاكل هاد الأيّام؟ راك غير تخطط وتعاود.

تبسمت وقلت: هيّا نروحو للمحل، راني عيان ميت حاب نرقد.

ثم قلت ليوبا: سنأتي غدا صباحا لنبدأ العمل، ليلتكم سعيدة.

عدنا إلى المخبزة أنا ورمزي، سقطت في فراشي متعبا، بقينا نتبادل أنا ورمزي الأحاديث وكلّ واحد فينا ينظر إلى السقف.

قال رمزي: علاه الخبز كي نسهر حتى لسبعة تاع الصباح نلقاه نورمال وكي نرقد ونوض نلقاه صابح؟ وين علابالو بلي رقدنا؟

قلت: ما ترقدش باش يبقى كيما راه ونبيعو القديم، ارقد ارقد بركا بلا تبهليل.

@EL MOUTHAKAF

استيقظنا صباحا على أصوات المقاتلين يدعون النّاس من شارع لآخر للمساعدة في تطبيق ما تحدّثنا عنه البارحة. استيقظت أنا وبقي رمزي يتقلّب في فراشه.

جاء مانو وقال: صباح النشاط يا رفاقي.

قلت: صباح البونجوغ، خير علاه جيت؟

قال: أعلم أنّني يجب أن أكون في البيت مع زوجتي لكنّ وطني بحاجة إليّ.

قلت: إيه مانو لابوانت يا خويا، كيف كانت ليلة البارحة ؟ هل استمر حفل زفافك؟

قال: نعم، لكن دونكما لم يستمر طويلا.

قلت: لا عليك، المهم تزوجت، روح نوّض الحجرة هاداك، مين داك نحسو مورصو عجينة قاعدة طيب.

خرجنا ثلاثتنا وتوجهنا نحو قصر يوبا، كان في انتظارنا، كان النّاس يأتون من كلّ صوب نحو ساحة القصر متجمعين، خرج إليهم يوبا من شرفة القصر وخاطبهم قائلا:

- يا سكان المدينة، كما قال لكم المقاتلون، جيش تاشفين قادم بعد أيّام، يجب علينا أن نكون متأهبين للحرب، بما أنّهم يفوقوننا عددا وقوة يجب علينا أن نتحايل عليهم، سنقوم بوضع خطة محكمة، الآن يجب أن نقسم المهام، كلّ مجموعة تقوم بعمل ما.

BROUILLON

أُغْلقت كلّ المحلات والنشاطات وراحوا كلّهم يلبّون نداء الواجب، جُمِعت كمية كبيرة من الزيت المشتعل، وقام السكان بإخراجها في العربات، ذهبت معهم لأريهم أين يسكبونها، ثمّ أُمِرت مجموعة أخرى لكي يحضروا كمية معتبرة من العشب لنغطّي بها الزيت لكي لا تُكتشف خطتنا، في حين كان الفريق الآخر يحفر خندقا كما قلنا في المرة السابقة، الكلّ نشيط ومتعطش للحرية، النّساء تكفّلن بالطعام ورُحْن يصنعن ما لذّ وطاب ويرسلنه مع الأطفال للسكان المشاركين في العمل، مانو ورمزي كانا منهمكين مع الفريق الذي كُلّف بصنع العصي الحادة، في الجهة الأخرى مجموعة من الشباب كانوا يبلّلون التراب ويدعسونه بأحصنتهم ليصنعوا طينا لزجا لنضعه لاحقا في الخندق، كانت أيّام متعبة، لكن كلّ الأعمال انتهت في الوقت المناسب، أتى خبر من المقاتلين الذين يحرسون حدود المدينة بأنّ تاشفين وجيشه سيصلون صباحا، انضمّ الكثير من الشباب والرجال هذه المرة وتسلّحوا كلّهم، كانت المباني وأسطح المنازل تحتوي على أعداد كبيرة من الرماة تحسّبا لأيّ طارئ، خرج يوبا وأجراد وبعض المقاتلين وصعدوا كلّهم على الدرج ووقفوا يراقبون خارج المدينة، كنت أنا ومانو ورمزي معهم ثمّ سمعنا صوت الخيول وهي تقترب، غبار يتصاعد شيئا فشيئا، دقّ ناقوس الخوف في قلوبنا في تلك اللحظة لكن سرعان ما استعدنا شجاعتنا، كان رماتنا يقفون كلّهم متسلسلين على حائط المدينة ساحبين سهامهم التي عُلّقت في كلّ رأس منها قطعة قماش صغيرة سريعة الالتهاب وأمامهم عصيّ ملتهبة موضوعة أمامهم.

@EL-MOUTHAKAF

وصل جيش تاشفين وتوقّفوا كلّهم بعيدين عنّا حوالي مئتي متر، أرسل تاشفين أحد جنوده وجاء يتقدّم إلينا فوق حصانه، وقف أمامنا وقال:

- سيّدي تاشفين يأمركم بالاستسلام.

ضحك يوبا وقال: نستسلم؟ بل قل له هو أن يستسلم.

أجاب الجندي قائلا: السيّد تاشفين لا يرحم من يتمرد، إذا لم تستسلموا سوف ندعس رؤوسكم بأحصنتنا.

قال يوبا: قل لسيّدك أن يتجرع الماء لأنّني لا أريد أن أقتله وهو ضمآن.

قال الجندي: حسنا أنتم من أردتم ذلك وانطلق عائدا نحو جيشه.

نظر إليّ يوبا وأنا بدوري نظرت إليه، ركّزت بنظري في المنطقة التي سكبنا فيها الزيت، تقدّم جيش تاشفين وخرج فريق منهم يجرّ المجانيق وأحضر آخرون كرات حجريّة كبيرة، بينما تاشفين كان واقفا خلفهم ومعه الرماة وحاملي السيوف، طلب يوبا من الرماة بأن يشعلوا سهامهم، وأمرهم برميها عند إشارته، كانت مجانيقنا أيضا مستعدة للإطلاق، ما إن اجتازوا حاجز الزيت حتى أشار يوبا بيده إلى المقاتلين لكي يلقوا سهامهم الملتهبة، التهب المكان والتهب معه كلّ الجنود الذين كانوا يقفون في تلك المنطقة حتى المجانيق التهبت، صرخنا كلّنا فرحا ونطق لساني قائلا:

- واااه وديرو المشوي. استدرت ناحية مجانيقنا وقلت:

- أمطروهم حجارة. سقطت عليهم تدعسهم كأنّهم حشرات، اشتعل تاشفين غضبا لكنّه لم يستطع تجاوز اللهب المتصاعد، بدأ رماتهم

BROUILLON

يرسلون السهام، أصابت بعضنا وجرحت آخرين، واصلنا الرمي بالمجانيق والسهام، بدأ اللهب يندثر شيئا فشيئا، انطلق تاشفين وجنوده يجرون نحونا، رمزي ومانو يراقبان الخندق، ما إن وصلوا حتى سقطوا في فخنا من جديد، انغرست العصي الحادة في أحصنتهم ومنهم حتى من اخترقت قفصه الصدريّ، خارت قواهم، منهم حتى من هرب عائدا، بقي تاشفين ومن معه، سحبنا سيوفنا وخرجنا إليهم، كانت معركة شرسة وعندما أحسّ تاشفين بانهزامه امتطى حصانا وانطلق عائدا، لاحظ يوبا هروبه وقال صارخا:

- لا يجب أن يهرب، اتبعوه.

امتطينا الأحصنة وذهبنا وراءه،انطلقنا أنا ويوبا ورمزي ومانو ومعنا أجراد وثلاثة مقاتلين، كان تاشفين يسبقنا منجها نحو الغابة السوداء، كان يركض بحصانه ويلتفت إلينا من حين إلى آخر، كان يوبا يسبقنا ويحمل في يده سيفا ونظره مُركّز في تاشفين، دخل تاشفين إلى الغابة، ثمّ استقبَلنا مجموعة من جنوده كانوا مختبئين في أطراف الغابة، أصيب أحد مقاتلينا بسهم أرسله أحد جنوده ووقع من حصانه، ثمّ راحوا يرسلون علينا سهامهم وكلّ واحد فينا يختبئ خلف شجرة، بقينا للحظات نتبادل رمي السهام، ثمّ خرجنا نتقاتل بالسيوف، كانوا يفوقوننا عددا لكنّ أجراد ويوبا كانا يقطعان أعناقهم بشراسة ما أشعل في نفوسنا روح القتال، التفت يوبا إلى تاشفين فلم يجد له أثرا، خاصة وأنّه توغل داخل الغابة مما يجعل العثور عليه صعبا نوعا ما، بعدما انتهينا من أمر الجنود، أمر يوبا كلّ واحد منّا أن يسلك طريقا للبحث عنه، وقال بألّا

@EL MOUTHAKAF

نقتله فهو يحتاج إليه حيا لغرض ما، كلّ واحد فينا سلك طريقا، بالنسبة لي اتجهت شرقا وأنا أحمل في يدي سيفاً وأراقب المكان بحذر، كنت أتمشى وأراقب ما يوجد أمامي حتى انزلقت قدمي ووقعت أتقلّب في جرف شديد الانحدار، ما إن وصلت إلى الأسفل حتى اصطدم رأسي بحجر أفقدني وعيي، استيقظت بعد عدة دقائق، كان الدم يتصبّب من جبهتي من أثر الاصطدام، وقفت بصعوبة في مكاني وتمسكت بشجرة كانت خلفي ورفعت بصري، وإذا بجدار حجريّ كبير يتوسطه باب حديديّ دائريّ منقوش أعلاه كتابات ذهبيّة لا أدري أيّ لغة هي ومقبض غليظ وفتحة مفتاح كبيرة، تقدّمت نحوه أتحسسه، كان يبدو قديما جدا ولم يصل إليه أيّ بشر منذ أن شيّدوه، رفعت رأسي للأعلى رأيت الجرف الذي سقطت منه، بدأت أفكر ثم قلت:

- واش وصل الباب هذا للغابة؟ مايكونش الجنود تاع إيدير كانوا يخرجوا من هنا؟ مانظنش الباب هذا بعيد على سيرتا بزاف.

ثمّ تحركت من ذلك المكان لأكمل البحث عن تاشفين، حفظت كلّ شبر من تلك المنطقة، لأنّني حتما سأعود إليها لأكتشف هذا الباب الغامض، سلكت طريقا آخرا كان عاليا نوعا ما لكن سرعان ما تسلّقته، سمعت صوت رمزي ومانو يناديان عليّ، اتبعت أثر الصوت ثمّ التقيت بهما، لاحظا الجرح الذي في رأسي. سألني رمزي قائلا:

- واش بيه راسك؟

قلت: والو، زلقت برك تبخط راسي في الشجرة.

BROUILLON

قال مانو: رأسك ينزف يا صديقي هيّا، لنعد أدراجنا فيوبا وأجراد أمسكا بتاشفين وأرسلنا للبحث عنك.

لم أرد التحدّث في أمر ذلك الباب في تلك اللحظة فضّلت أن أكتم الأمر حتى تمرّ هذه الأيّام...

"ستدفعون الثمن غاليا": قالها وهو جالس على الأرض ويداه مربوطتان للخلف في شجرة، كان أجراد ويوبا يقفان قبالته، وصلت أنا ورمزي ومانو، ألقينا التحية ليوبا، نظر إلى جبهتي وقال:

- زال بأسك يا صديقي، هل حدث معك شيء؟

قلت: لا شيء، خدش بسيط.

نظرت ناحية تاشفين، كان رجلا يبدو أنّه في الخمسينيات من العمر، لحية سوداء كثيفة، ممزوجة بشعيرات بيضاء، أنف عريض وحاجبين غليظين وشعر مجعّد كثيف ومظفور، قامة طويلة وكتفين عريضين، شديد الصوت ملامحه توحي بأنّه خطير وأخذ الكثير من الأرواح، رمقني أنا ورمزي بنظرة وقال:

- إذًا أنتما الدخيلان اللذان تسبّبا في كلّ هذا.

قلت: ماعجبكش الحال واقيل؟ هاو ليك الحشيش ارعى.

نطق رمزي قائلا: يا جدك لمزية لي مخرجتش معاه فاص أفاص، سينو تطلع روحي قبل ما نضارب معاه.

قلت: كون تشوف سامعك، أنا يديرني شاطال يعلق فيا القش.

نزل يوبا على ركبتيه وقرّب وجهَه لوجهِه وقال:

- انتهى عصرك يا تاشفين، لن تأخذ أرواح الأبرياء بعد الآن.

@EL MOUTHARAF

ثمّ ذهب ناحية يديه وسحب من إصبعه خاتما منقوشا عليه ختم، وعاد واقفا أمامه، بدأ تاشفين يزمجر ويتوعد يوبا بأنّه سينتقم منه. سألت يوبا قائلا:

- ما هذا الخاتم؟ هل هو خاتم خطوبته؟

تبسّم وقال: هذا الخاتم هو مفتاح الجهة الغربية وبه سوف نسقط القائد الأعلى.

قلت: لم أفهم.

قال: سنتحدّث في الأمر لاحقا. ثمّ ثبّت نظره في تاشفين وقال:

- لا يجوز أن نتحدّث أمام عدوّنا الشجاع الذي كان يظنّ أنّه سيجعل من جثثنا طعاما للضباع.

بعد لحظات لحق بنا المقاتلون الذين تركناهم خلفنا يقاتلون جنود تاشفين في مدخل الغابة، ثمّ امتطينا أحصنتنا وكان يوبا يجرّ تاشفين بحبل طويل، وعدنا نسير ببطء نحو المدينة، ما إن دلفنا حتى خرج السكّان يرشقون تاشفين بالحجارة وهو يغطّي وجهه وينعتهم بعبارات قبيحة ثمّ وصلنا إلى ساحة القصر، سحب يوبا تاشفين بقوة أسقطته أرضا، أجلساه جنديان على ركبتيه وأخذ يجول ببصره نحو السكّان وهم ينظرون له باشمئزاز، رفع يوبا يده للسماء لكي يستمع له الجميع ثمّ قال:

- هذا هو تاشفين الذي كنتم خائفين من قوّته، ها هو الآن بين يديّ، هل عرفتم الآن أنّ النصر ليس بالقوة بل بالشجاعة والذكاء؟

ثمّ أشار إليّ بيده، ذهبت نحوه وقال بصوت عالٍ: من أراد أن يقدّم شكره، فليقدّمه لهذا البطل.

PROUILLON

التفت الجميع إليّ، ثمّ صاروا يهتفون باسمي، ثمّ قلت:

- أنا لم أفعل شيئا، أنتم من أثبتتم أنّكم شجعان وذوي إرادة قويّة، حلم تأسيس الدولة النوميديّة أصبح حقيقة الآن، لقد تمّ الإيقاع باثنين من المجرمين، لم يبقَ الكثير فقط استمروا ولا تنتظروا النصر، النصر سيأتي عاجلا أم آجلا.

تقدّم مانو ورمزي نحوي وعانقاني ثمّ قال رمزي:

- هاذ الدماغ ماكنتش حاسب بلي فيه هادو كامل.

قلت: مام أنت دماغك يخمم، واشنو خاصو صقلة برك.

ضحكنا كلّنا، ثمّ أمر يوبا المقاتلين ليأخذوا تاشفين إلى السجن ليتمّ استجوابه لاحقا، ثمّ دلفنا كلّنا إلى القصر وجلست أنا ويوبا وأجراد على أريكة خشبيّة نتبادل الأحاديث بينما مانو ورمزي كانا منشغلين بالاحتفالات مع السكّان خارج القصر، ثمّ سألت يوبا قائلا:

- لم تخبرني بسر الخاتم، ولماذا انفعل تاشفين عندما نزعته من إصبعه؟

رفع بيده كوب العصير واعتدلت جلسته وتبسّم قائلا:

- بهذا الخاتم سوف أحضر ما أريد من العتاد والأموال.

قلت: لكن كيف ذلك؟

سحب الخاتم من جيبه وقال: هل ترى هذه النقوش؟ هذا ختم القائد، عندما يريد شيئا ما من القائد الأعلى يكتب رسالة في ورقة ويختمها بهذا الختم.

ثمّ قلت: وما أدراه القائد الأعلى أيّ شخص يستطيع أن يصنع مثله.

@EL-MOUTHAKAF

قال أجراد: هذا الختم يا صديقي لم يرَه أيّ أحد ولن يراه أيّ شخص آخر إلّا حامله، لهذا لن يستطيع أيّ أحد تقليده.

قلت: آه حسنا وماذا ستطلب من القائد الأعلى؟

قال: أنا لن أطلب من القائد الأعلى، بل سأرسل جنديًّا إلى الجهة الغربية ومعه رسالة مفادها بأنّ تاشفين يريد العتاد والكثير من المال لتوظيف العديد من الجنود.

قلت: خطة جيّدة، لكن ماذا ستفعل بالأموال؟ هل ستوزعه على الفقراء؟

قال: نعم، نصفه نوزعه على السكان كمكافأة على مجهوداتهم والنصف الآخر سنوظف به المزيد من الجنود وسنعيد ترميم الأسوار لتصبح أكثر صلابة. ثمّ تبسّم وأردف: هذه سيرتا يا صديقي، العاصمة يجب أن تكون قويّة كحاكمها.

قلت: معك حق، إذًا كلّ شيء يسير بشكل جيّد الآن.

قال: وهو كذلك، أنت مدعو الليلة لوليمة كبيرة أنت وصديقيك.

قلت: حسنا، سوف نأتي، كثرونا من الشخاشيخ برك وخاطيك الشغل.

خرجت إلى المدينة وقد كانت ممتلئة عن آخرها، النّاس يرقصون ويغنّون في كلّ مكان، وجدت رمزي ومانو قادمين نحوي ثمّ سحباني من يديّ وقال مانو:

- أنت لم ترقص في حفل زفافي، هذه هي فرصتك.

قلت: لا لا، يا خويا واش هاد الغنا؟ تحسب جنازة. ديرونا عراسي وتشوف الكور كيفاش يترعد.

BROUILLON

ضحك رمزي وقال: كان جات كاينة دربوكة نجيبولهم هاديك تاع" أنا بحر عليا ونتيا لا".

قلت: لا ماتشطحش هاديك، مليحة تاع سعد المجرد أنت معلم وحنا منك نتعلّم.

ضحك رمزي وأشار بأصبعه قائلا: أنت معلم واحنا منك نتعلّم.

في المساء ذهبت أنا ورمزي إلى الوليمة التي دعانا إليها يوبا، كان مانو مشغولا بأمور البيت، عدنا إلى المحل في آخر الليل، كنت سأخبر رمزي بأمر الباب الذي تصادفت به أثناء تواجدي في الغابة لكنّني فضّلت أن أكتشفه وحدي قبل أن أخبره، مرّت الأيّام واستعدنا نشاطنا في المخبزة، طلب يوبا لقائي في القصر مساءً، غيّرت ملابسي وذهبت رفقة رمزي بعد انتهائنا من العمل، دلفنا إلى القصر وجدت يوبا جالسا وأجراد واقفا أمامه تتوسطهم طاولة كبيرة موضوعة عليها مجموعة كبيرة من الصناديق الخشبيّة، ما إن رآني حتى قال:

- أجمل ما في الحروب هي الغنيمة. وضرب أحد الصناديق بيده.

قلت: ماهذا؟ لا تقل لي أنّك أحضرت المال من الجهة الغربيّة كما قلت لي في المرة السابقة.

تبسّم وفتح الصناديق واحدا تلوى الآخر، كانوا يحملون الكثير من القطع الذهبيّة لدرجة سقط بعضهم على الأرض.

ابتهج رمزي قائلا: شوف شوف الدراهم كي التراب.

ضحك يوبا وقال: سوف نصنع جيشا عظيما بهذه الغنائم.

قلت: لكنّك جنّدت كلّ السكّان الموجودين هنا.

@EL MOUTHAKAF

قال: أنت تعلم يا صديقي بأنّ المال يجلب لك كلّ شيء، كلّ جنود تاشفين الموجودين سوف ينضمّون إلى صفي عندما نذهب لفتح الجهة الغربيّة، بعدما أحضرت هذه الغنائم أرسلت لهم خبرا بأنّ زعيمهم تمّت الإطاحة به من طرفنا.

قال رمزي: لكن سيهاجموننا إن علموا بالأمر.

ثمّ سحب الخاتم من جيبه وقال:

- لن يستطيعوا الاقتراب منّا ما دام هذا معي، فهم يقدّمون الولاء للخاتم أكثر من حامله.

قلت: مخ الهدرة، لماذا أرسلت في طلبي؟

فتح صندوقا خشبيًّا آخرا كان مملوءًا بالقطع الذهبيّة وقال: ماذا ستفعل بحصتك يا صديقي؟

قلت: هل تقصد أنّ هذه من نصيبي؟

تبسّم وقال: ولمَ لا؟ فأنت من جعل حلمنا حقيقة.

وضعت يدي على الصندوق وقلت: شكرا لك، لكن لا أريد أيّ مكافأة.

نظر إليّ رمزي بتعجب وقال: منك صح؟

قلت: إيه، راح نرجعو للبلاد واش نديرو بيهم؟

زلّ لساني دون أن أشعر، واصل رمزي نظره نحوي وقال:

كيفاش كيفاش؟ نرجعو للبلاد؟ وين نرجعو للبلاد؟

قلت: حكاية طويلة، من بعد نحكو فيها.

قال يوبا: لكن يا صديقي أنت تستحقها.

قلت: هناك من يستحقها أكثر منّي.

BROUILLON

قال: من؟

قلت: صديقنا مانو، حلمه أن يمتلك مخبزة كبيرة، أعلم أنّه لن يفسد هذه الأموال وسوف يستثمرها في مساعدة النّاس.

قال يوبا: كما تريد، على كلّ حال إذا غيّرت رأيك، فقط تكلّم مع أجراد وهو سيسلّمها لك.

قلت: حسنا ضعها جانبا، سأستلمها في اليوم المناسب.

ونحن في الطريق عائدين إلى المخبزة سألني رمزي قائلا:

واش تقصد قبيل كيما قتلي راح نرجعو للبلاد؟

قلت: إيه هذاك هو الصح، خلاصت المهمة تاعنا هنا دوكا خاصنا نرجعو منين جينا.

قال: بصح ماعندنا حتى فكرة على الغار لي خرجنا منو حتى هنا.

قلت: ما كنتش حاب نخبرك.

ثمّ قصصت له عن ماذا حدث لي في الغابة السوداء وذلك الباب الذي وجدته صدفة، ثمّ قال رمزي:

- قادر يكون المكان لي كانوا يتخباو فيها جنود إيدير لي كانوا يحرسوا الغابة.

قلت: مانظنش، باب قديم بزاف لدرجة ناض فيه الحشيش.

قال: وقتاش نروحو نشوفوه؟

قلت: غدوة الصباح.

في صباح اليوم الموالي: استيقظت أنا ورمزي وقمنا بإنجاز كلّ مهام المخبزة من عجين وطهي، ثمّ دلف إلينا مانو، قلت:

@EL-MOUTHAKAF

- لقد أنجزنا كلّ شيء يا صديقي، كلّ ما عليك فعله هو البيع فقط.

قال: لماذا؟ هل أنتما ذاهبان إلى مكان ما؟

قلت: نعم، لقد أرسل يوبا في طلبي أنا ورمزي.

قال: لماذا؟

قلت: في الحقيقة لا أدري، قال أنّه موضوع مهم، على كلّ حال سوف نأخذ طلبيات الزبائن معنا من ثمّ سوف ننطلق إلى قصر يوبا.

قال: حسنا إذًا سنلتقي لاحقا.

خرجت أنا ورمزي محمّلين ببضاعة الزبائن ورحنا نوزعها الواحدة تلوى الأخرى. بعدما انتهينا من العمل، كان علينا أن نذهب إلى مقر يوبا السابق لنأخذ الأحصنة، سألني رمزي قائلا:

ما نقولوش ليوبا؟

قلت: لا خليها بيني وبينك.

قال: علاش؟ بصح هو راهو الحاكم تاع سيرتا والغابة السوداء تحت يدو.

قلت: يا ودي عندي إحساس بلي الباب هداك ماش عادي.

امتطينا الأحصنة وانطلقنا ناحية الغابة السوداء، دلفنا داخل أشجارها، بدأت أسترجع الذاكرة لمعرفة مكان تواجد ذلك الباب، ثمّ نزلنا من أحصنتنا وتوجهنا نحو منحدر، نزلنا بحذر إلى أن وصلنا إلى أرضيّة مستوية ورمزي يتابع خطواتي بتعجب ويسألني تارة قائلا:

- راك متأكد بلي من هنا؟

قلت: ياودي تبع واسكت، علابالي واش راني ندير.

BROUILLON

أكملنا المسير بمحاذاة جدار ترابيّ عالٍ، حتى بدأ يظهر لنا جدار حجريّ ممتدّ مع الجدار الترابيّ، وقفنا أمام الباب أنا ورمزي ثمّ قال:

- عندك الحق باب قديم بزاف وما نظنش لكان فتحوه من قبل.

وقفت أنظر إليه بتمعن، أمسكت المقبض وحاولت سحبه للأمام وللخلف لكن لم يتحرك ولو سنتيما واحدا، قلت لرمزي:

- لازمو مفتاح هذا، ماش كيما الباب لي فتحناه في الغار.

بدأنا نتحسس الجدار ونلاحظ أيّ شيء غريب فيه، حتى وقعت عيني على حجر كان يبدو أنّه ليس مثبتا كالبقية، نزعته من مكانه وأدخلت يدي في جوفه حتى تحسست شيئا حديديًّا، سحبته من مكانه ورحت به إلى فتحة المفتاح أدرته دورتين ففُتح الباب.

نظرت إلى رمزي وهو بدوره نظر إليّ، سحبناه للأمام، كان بابا ثقيلا من أثر الصدأ الذي كان يغطّي حوافه، وقفت في مدخله، كان ممرا طويلا ومظلما بالكاد لا تستطيع أن ترى جدرانه، طلبت من رمزي أن يشعل عصى أحضرناها معنا، ثمّ قلت:

اربط يديك.

قال: علاش نربط يديّ؟

قلت: يديك فيهم الملح، يا خويا هاد المرة ماش نخرجو في نوميديا، هاد المرة نخرجو في العصر الطباشيري.

قال: ماني راح نمس والو يا الفاهم، خلينا نكتشفو برك واش كاين هنا.

دخلنا نسير ببطء ونتحسس الجدران، كنّا كلّما نتوغل في ذلك الممر تنخفض درجة الحرارة، أسناني أصبحت تصطكّ من شدّة البرد، خرجنا

@EL-MOUTHAKAF

إلى طريق كانت مقسّمة إلى جهتين يمين ويسار. قلت لرمزي:

- وين نروحو؟

قال: شادي مادي، قالي راسي ندي هادي ولا هادي.

ثمّ أشار بيده إلى اليمين وقال:

- أيا منا.

قلت: الله يجعل خير.

توجهنا يمينا، كان نفقا ضيّقا بعض الشيء، لكنّه كان آمنا ولا أثر لأيّ مخلوق لا عقارب ولا ثعابين، أكملنا المسير حتى وقفنا عند باب خشبيّ صغير أمامه عصى معلقة على الحائط أشعلتها بالعصى التي في يدي، ثمّ سحبتها لكي أعطيها لرمزي ليحملها بيده، سمعت صوتا من الباب، كان يبدو وكأنّه فُتح، دلفنا إلى الداخل، كانت غرفة صغيرة، وخزانة صغيرة موضوع فيها مجموعة كبيرة من الأوراق ملفوفة ومغطاة بالغبار، وفي الجهة الأخرى طاولة خشبيّة متوسطة الحجم وأمامها كرسي وعلى سطحها مجموعة من الشموع الذائبة، وتبدو أنّها لم تستعمل منذ مدة طويلة، ذهبت ناحية الخزانة، رفعت أحد المجلدات، كانت تبدو أنّها عبارة عن رسائل لكن لا أعلم أيّ لغة هي، تبدو وكأنّها اللغة البونيقيّة، ثمّ وقع نظري على مجلد خشن وقديم ومصنوع بطريقة غريبة، ما إن سحبته حتى أحسست أنّني سحبت معه شيئا آخر، فتح الجدار الذي خلف الخزانة، نظر رمزي وقال بتعجب:

- باب سريّ؟

قلت: عاوني نفتحوه.

BROUILLON

سحبناه ببطء، كانت غرفة واسعة ومظلمة، لم نلاحظ اتساعها حتى لامس صدفة لهيب النار أحد الخيوط التي كانت تتدلّى من جدرانها، اشتعلت وكأنّها فتيلة وامتدت تشعل فوانيسا كانت معلّقة في الجدران متسلسلة ومشكّلة حلقة حول الغرفة، انصدمنا من هول ما رأيناه أنا ورمزي عندما أنيرت الغرفة، كانت مملوءة إلى آخرها بالكنوز وقطع الذهب، أواني ذهبيّة وأخرى كانت تبدو مصنوعة بنوع من أنواع الألماس النادر، تقدّمت ببطء، وقعت قدمي فوق قطعة ذهبيّة، انحنيت إليها وسحبتها وأخذت أنظر إلى الرسومات الموجودة فيها، دقّقت في تفاصيلها ثمّ اندهشت قائلا:

- هادي عملة نوميديا في زمن ماسينيسا.

قال رمزي: كيفاش عرفت؟

قلت: هاو ليك وجه ماسينيسا منقوش فيها،بعدما انتصر ماسينيسا على سيفاقس حكم نوميديا وأسّس العملة تاعو واتّخذ من سيرتا عاصمة المملكة النوميديّة.

قال رمزي: اليوم وين سمعتها منك.

ثمّ أردنا أن نقترب من الكنوز الموجودة هناك لكي نكتشف أكثر حتى تشقّقت الأرض من تحتنا، عدنا بذعر أنا ورمزي إلى خارج الغرفة وظهرت دوامة سوداء كبيرة وأخذت تسحب كلّ تلك الكنوز التي كانت تغطّي الغرفة، كانت تسقط وتختفي مباشرة وكأنّها تبتلعها وتختفي مباشرة، أصابتنا الدهشة ولم نصدّق ما نراه، بعدما اختفت تلك الكنوز اختفت معها تلك الدوامة وعادت الأرضيّة كما كانت، نظرت إلى رمزي وهو

@EL MOUTHAKAF

بدوره نظر إليّ وقال:

- وين راحت؟

قلت: كي شغل تبخرت.

بحثت عن شيء ما لأرميه لأرى إن كانت سوف تُفتح من جديد، تحسّست قميصي ثمّ سحبت من جيبي حبة تفاح ورميتها في وسط الغرفة، فتحت الأرضيّة من جديد وأخذت معها التفاحة لكن لا أعلم إلى أين ، ثمّ أُغلقت على الفور، نظر إليّ رمزي وقال:

- ما تكونش فجوة زمنيّة؟

قلت: مانعرف، نقلك كيفاش نديرو؟ خاصنا نجيبو حبل ونرموه في وسطها.

عدنا إلى الغرفة الأخرى وأخذنا نفتش في كلّ زاوية من زواياها علّنا نجد حبلا أو شيئا طويلا، وقع نظر رمزي على حبل ملفوف وموضوع في زاوية في الغرفة، سحبه وأمسكه بسرعة وأحضره إليّ، أمسكت بيدي حجرا صغير وربطته في طرف الحبل، ثمّ عدنا إلى تلك الغرفة العجيبة ورميت الحجر وسطها، ثمّ فتحت الأرضيّة من جديد ووقع فيها الحبل واختفى من بين يديّ وكأنّه طيف، نظر إليّ رمزي وقال:

- راني نقلك فجوة زمنيّة يا خويا، بصح وين تدي ما نعرف.

قلت: دوك حنا لازمنا نرجعو للبلاد، ما دام جينا هنا عن طريق فجوة فأكيد كاين طريق للعودة، الغار لي جينا منو اختفى ماش حاجة عادية.

قلت: نجربو يا خويا، نغامرو كيما غامرنا في المرة لي فاتت.

قال: قصدك ندخلو فيها؟

BROUILLON

قلت: ماعندناش حل خلاف، وإلّا نبقاو هنا مدى الحياة.

قال: ولوكان نرميو رواحنا فيها وترحينا؟

قلت: خلطها تصفى، أنا راح ندخل فيها، تحبّ تقعد هنا دبر راسك ما نحتمش عليك.

قال: كي تروح وتخليني هنا واش نقعد ندير، بدينا المغامرة هادي كيف كيف نكملوها كيف كيف، مالا وجد روحك غدوة التقليعة.

خرجنا من ذلك المكان وسألني رمزي قائلا:

- ومانو كيفاش؟

قلت: لا، ما تقولوش، خليها بيني وبينك نروحو سونسمير، دوكا نروحو عند أجراد يعطينا الصندوق هداك، ندوه للمحل ونخلولو رسالة وننطالقو مع الفجر.

قال: أوكي كيما تحب.

امتطينا أحصنتنا وعدنا متوجهين نحو قصر يوبا، عدنا أنا ورمزي نسابق الأفكار ونفكّر في أمر تلك الفجوة وإلى أين ستقودنا، كلّ ما في الأمر هو أنّنا قررنا الرحيل إلى عالمنا، لقد اشتقنا إلى أهالينا وإلى وطننا الجزائر، لكن في نفس الوقت أصابنا حزن عميق لأنّنا قضينا في سيرتا الكثير من المواقف الجميلة، خاصة وأنّنا نملك العديد من الأصدقاء الذين يحبّوننا ويقدرونا خاصة صديقنا مانو.

ونحن في الطريق عائدين شاردين كلّ واحد فينا يفكّر في أمر ما، قاطع شرودي رمزي قائلا:

- تامن والله كنت صح قبل حاب نرجع للبلاد، وكنت نحس راني في غربة،

@EL-MOUTHAKAF

بصح دوكا راني نحس رايح لغربة ماش لبلادي.

قلت: الله غالب مانقدروش نريحو هنا، هادو عاشوا حياتهم وماتوا وزادوا جاو بعدهم بزاف حضارات، حنا الحضارة تاعنا في ٢٠٢٠ يا صاحبي.

نظر إليّ رمزي بحزن وقال: المهم اكتشفنا حاجة ماكاش لي كتاشفها قبل، دوكا ولات عندنا نظرة حية على الحضارة النوميديّة ما بقاتش مجرد هياكل وآثار.

قلت: نتوكلو على ربّي وخلاص المهم كيما وصيتك ما تقولش لمانو.

وقفنا عند قصر يوبا، دلفنا إلى الداخل، رأيت أجراد نازلا من السلم، ألقيت عليه التحية وقلت:

- أريد ذلك الصنوق يا صديقي.

قال: لا تقلق سوف أرسل مقاتلا ليوصله لك في مكان إقامتك.

قلت: شكرا لك، لكن أريد أن أحمله أنا.

نظر إليّ في تعجب وقال: كما تريد. أمر أحد المقاتلين بحمل الصندوق إليّ، حملته أنا ورمزي ووضعناه على سرج حصاني وانطلقنا عائدين نحو المحل مساءً، وجدت أحد التجار العاملين بالشارع الذي فيه مخبزة مانو واقفا أمام المحل ويجول ببصره باحثا عنّا، ما إن وصلنا حتى قال:

- صديقكم مانو ترك مفتاح محله معي لكي أعطيه لكما.

كان هذا جيّدا لأنّ مانو غير موجود، دلفنا أنا ورمزي إلى الداخل، جلسنا قليلا ثمّ بدأنا بحزم أمتعتنا للذهاب إلى تلك الوجهة المجهولة، شرد ذهني وأصبحت أحدّث نفسي قائلا:

BROUILLON

- أحيانا نجبر أنفسنا بالدخول في وجهة مجهولة لا نعرف إلى أين تأخذنا وإلى أين نهايتها وكيف سنكون فيها وهل سنتمكّن من عبورها، لكن أجمل ما في هذا الأمر هو ذلك الحماس الذي يسير بجسدك، ذلك الحماس الذي يرتعش قلبك عندما يلامسه، أحيانا يجب علينا أن نخرج من منطقة الراحة ومنطقة الأمان لكي نكتشف أنفسنا من نحن وهل نملك القوة لمواجهة المجهول.

ثمّ تذكّرت كلمات أخي الأكبر الذي قال لي يوما: " الغربة عبارة عن سجن بابه مفتوح، لك خياران إمّا أن تسجن نفسك أو تخرج لمواجهتها.

قاطع شرودي رمزي قائلا:

- وين نحط الصندوق تاع الذهب؟

قلت: خبيه تحت الطابلة.

جلست على الكرسي وأخذت ورقة وقلما وتركت رسالة لمانو أعبّر فيها عن امتناني له لأنّه ساعدنا في الكثير من المواقف، ذكرت له بعضها وتركت له بعض الذكريات الطريفة التي حدثت بيننا، وأين يجد صندوق الذهب الذي أهديته إياه، ثمّ حملتها وذهبت بها ناحية محل البيع، علّقتها في الجدار المقابل، عند دخوله سيلاحظها.

أسدل الليل ستائره تناولت أنا ورمزي آخر وجبة عشاء في سيرتا ثمّ كلّ واحد فينا وضع رأسه على وسادته، استيقظنا فجرا مع صوت ديك الجار المقابل لمحل مانو، غيّرنا ملابسنا وحملنا معنا ما نحتاجه من زاد وانطلقنا نحو الغابة السوداء.

@EL MOUTHAKAF

وصلنا إلى الغابة، أخذ كلّ واحد فينا ينظر ويتمعّن في كلّ تفاصيلها مع أنّنا كنّا نزورها منذ سقط تاشفين وأصبحت آمنة لكن هذه المرة ننظر إليها وكأنّنا نودّعها، نزلت على ركبتي، وحملت في يدي حفنة من ترابها الذي ابتلّ بسبب الجليد الذي يتساقط كلّ ليلة ما يخلّف تلك الرائحة الطيّبة، أخذت أستنشق كلّ حبة تراب، ثمّ أكملنا مسيرنا إلى أن وصلنا إلى وجهتنا، دلفنا إلى ذلك الممر ثمّ إلى تلك الغرفة، نظرت إلى رمزي وهو بدوره نظر إليّ، ثمّ رميت قطعة من الحطب في تلك الأرضيّة،تشقّقت وظهرت تلك الفجوة السوداء، أمسكت بيد رمزي وقلت:" الآن".

أغمضنا أعيننا وقفزنا وسطها فابتلعتنا تلك الفجوة في جزء من الثانية، قطعت أنفاسي لثوانٍ ثمّ أحسست وكأنّني ملقى على أرضيّة صلبة، أصوات النّاس تتهاطل من كلّ صوب، فتحت عينيّ بذعر كان رمزي ملقى أمامي، رفعت رأسي وأخذت أجول ببصري باندهاش، طريق معبّدة بأحجار صغيرة وبيوت حجريّة مزخرفة وضخمة ،النّاس يرتدون تنانيرا قصيرة ويضعون على ظهورهم قطعا من القماش، شعورهم طويلة ويرتدون في أيديهم حليًّا ذهبيّة ويضعون على رؤوسهم تيجانا على شكل أوراق الشجر لكنّها كلّها بالذهب، نظر إليّ رمزي وقال:

- يا جدك وين رانا؟ وين رانا؟

أمسكني شخص ما من قميصي بقوة وأوقفني، استدرت ناحيته فإذا به جنديّ يضع على رأسه خوذة حديديّة ويحمل في يده سيفا، مفتول العضلات وذو نظرة حادة ثمّ قال:

BROUILLON

- من أنتما؟ ما هذه الملابس الهشة؟ هل أنتما من العبيد؟ هل هربتما من سيّدكما؟

ما إن أردت أن أتكلّم حتى جاءتني لكمة على وجهي أفقدتني جزءا من وعيي لكنّني أحسست أنّ قدماي ويداي قيّدا...

تمّـــــت

***

@EL-MOUTHAKAF